الباب الثاني

قيام الإمارات والدول وأحوالها وعلاقاتها السياسية و الإدارية

ثمانية فصول

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الاقصى

1- إمارة بني مدرار وتأسيس مدينة سجلماسة

2- العلاقات السياسية:

أ- بنوا مدرار والخلافة العباسية

ب- بنوا مدرار وبنوا رستم

ج- بنوا مدرار والإمارات

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الاقصي

(140 – 354هـ / 757 – 965م)

انتشرت أراء الخوارج الصفرية في بلاد المغرب في بداية القرن الثاني الهجري علي أيدي الدعاة العرب الخوارج الذين لجؤا إلي هذه البلاد وقد اتجهت الدعوة الصفرية إلي القبائل المغربية العنارية في المغرب الاقصي و من زعماء القبائل الذين تيسر لهم الاتصال بهؤلاء الدعاة المشارقة ميسرة المطفري زعيم قبيلة مطفرة الذي كان قد تلقي العلم علي يد عكرمة بن عبد الله المغربي مولي عباس أحد فقهاء مكة وتابيعها وكان عكرمة بن عبد الله من أصل مغربي مما أتاح له نشر آرائه في هذه الربوع بأسلوب منظم قائم علي الدعوة السرية ومن الزعماء الآخرين الذين اتصلوا بعكرمة في القيروان أبو القاسم سمغو بن واسول المعروف بمدرار شيخ قبيلة مكانسة الذي تبحر في دراسة أراء الخوارج الصفرية و أصوله وفروعه حتى وصف بأنة من مشاهير حملة العلم وانتشرت أراء الخوارج في قبيلة برغواطة علي يد طريف بن شمعون الذي إلتقي هو الآخر بعكرمة بن عبد الله في القيروان و في قبيلة زناتة التي ساهمت في الحركة السياسية التي قامت فيما بعد.

ويرد ما يشير إلي أن بعض المشارقة المقيمين بأفريقيا دانوا بآراء الصفريين، وكان هؤلاء قد تسربوا إلي بلاد المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق بهدف الفتح ولكن لم يكن لهم علي ما يبدوا أي تأثير فكري أو سياسي يذكر.

ونتيجة لانتشار أفكار الخوارج الصفرية ومبادئهم في المغرب الأقصى لم تحجم جماعات الأفارقة الذين اختلطوا بالروم عن اعتناقهم لها علي يد زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الذي تتلمذ علي يد عكرمة بن عبد الله في القيروان وكان هؤلاء الأفارقة أكثر تحضراً من غيرهم من السكان لكنهم أخذوا علي أمرهم مما ترتب علي تحولهم للصفرية نتائج مهمة في الصراع مع الولاة الأمويين الأواخر و الولاة العباسيين كما امتدت تعاليم الصفرية و أفكارها إلي جماعات من بلاد السودان

الذين كانوا يقطنون جنوب السودان و قد ارتضوا مباديء شيخ قبيلة مكانسة سمغو بن واسول التي كانت تدعو إلي المساواة السياسية.

ويلاحظ مما عرضته المصادر، أن آراء الصفرية تغلغلت في جميع أرجاء المغرب الاقصي وبعض مناطق المغرب الأدنى وافريقية والسودان في مدة قصيرة إذا قورنت بآراء الأباضية في المغرب الأوسط. و قد اتخذت حركاتهم السياسية طابعا عمليا إذا اتجهوا إلي المناطق الصحراوية النائية في المغربين الأوسط والاقصي وعولوا علي إقامة إمارتهم في جنوب المغرب الاقصي وفي منطقة إقليم " تافيللت " بأقصى الصحراء من قصبة سجلماسة مركزاً لهم سنة 140 هـ/757م.

إمارة بني مدرار و تأسيس مدينة سلجماسة

عَوّل الخوارج الصفرية علي تأسيس مركز سياسي وعسكري لهم يكون بمثابة عاصمة ومعسكراً يستجمعون فيه قواهم الموزعة في مناطق مختلفة من المغرب و كان لابد لهذا المركز أن ينأى بعيدا عن سلطة الولاة العباسين وعمالهم فاتجهوا إلي قصبة سلجماسة علي وادي نهر ملوية الذي يقع في إقليم (تافيللت) بأقاصي الصحراء الكبرى.

وكان أبوالقاسم سمغو بن واسول المكناسي المعروف بمدرار، قد حشد قبائل مكناسة وصنهاجة وزويلة وبعضاً من زنوج السودان والاندلسيين للإلهام في بناء مدينة سلجامة و إقامتها غير انه قبل الشروع في العمل بادر إلي مبايعة عيسي بن يزيد المكناسي الذي كان من اصل سوداني ومن زعماء الصفرية البارزين في هذه المنطقة و حمل قومة علي طاعته لتمكينه في المشروع بتخطيط المدينة و بنائها و القيام بمهمة التجميع السياسي و العسكري المنشود و منذ سنة 138 هـ شرع في العمل و بعد سنتين اكتمل بناؤها و أتقنت أسوارها و قسمت مياهها من خلجان و غرست بالنخيل و كان سمغو بن مأمول في الأصل صاحب ماشية كثيرة ينتجع موضع سلجامة و يتردد إليها و لذلك فهو يدرك أهمية موقعها من الناحيتين الاستراتيجية و الاقتصادية.

إن مبايعة قبائل الصفرية ليس بن يزيد المكناسي يمثل في حقيقته قوة عناصر السودان في داخل الحركة الصفرية في إقليم تافيللت و قد حدث ذلك في السنة التي اختطت فيها سلجماسة لتكون حاضرة للإمارة و مركزا لقبائل الصفرية سياسيا و اجتماعيا لقد حرص الصفريون علي إنشاء مدينتهم في مكان حصين، اذ أقاموها وسط الصحراء جنوب تلمسان و في موضع التقاء فرعي نهر ملوية ثم أقاموا حصناً داخل المدنية أطلقوا عليه اسم" العسكر" كما أسسوا المسجد الجامع و دار الإمارة ثم بني الناس دورهم حول الحصن فاتسع العمران حتى جاورت المدينة فرعي نهر ملوية.

ومن الجدير بالإشارة إلي أن معماري الأندلس أسهموا في بنائها. أما سورها فقد ابتنى سنة 205 هـ و له اثنا عشر باباً، أهمها الباب القبلي والباب الغربي وباب غدير وباب الجزارين وباب موقف زناته و قد اصبحت سجلماسة بعد اكتمال بنائها ملجأ لجموع الصفرية و لجميع اللائذين بها والهاربين إليها من أرجاء العالم الاسلامي، سواء من المغرب والمشرق و بذلك حققت أهدافها المرسومة لها سابقا علي يد زعيم مكناسة سمغو بن واسول في تجميع القبائل الموالية له و خلق كيان موحد لهم. غير أن أبا القاسم سمغو بن واسول لم يتول الحكم، بل عهد به إلي عيسي بن يزيد المكناس وقد حكم هذا الأخير خمسة عشر عاماً، ليس لدينا معلومات كافية عنها و الموجود منها يتسم بالإبهام وأكثره يجمع علي انه نتيجة لسياسته فقد سخط عليه أهل سجلماسة وانتفضوا ضده وقتلوه[1] وذلك لمآخذ انكروها عليه لا يتطرق المؤرخون إلي ذكر تفصيلات مهمة عنها ولعل انحرافه وإسرافه والاشتراط في أحكامه كان من الأسباب التي أدت إلى قتله بطريقة قاسية تنم عن التطرف والميل إلي العنف.

ويبدو أن عيسي بن يزيد لا يرقي إلي منزلة سمغو بن واسول من حيث السابقة في اعتناق الآراء أو الأفضلية في العلم، فتولي أمر سجلماسة و عكف طوال مدة حكمة 155-168هـ -772هـ-784م علي إرساء قواعد إمارته ورأي انه ليس من الحكمة الوقوف من العباسيين وولاتهم و مالهم في المغرب موفقا يتسم بالعداء، و ذلك و ذلك بغية انصرافه إلي حل المشكلات التي كانت تواجه إمارته و لضمان سلامتها وأمنها وتحقيق استقراها في المنطقة، مما اضطره علي مسالمة الولاة العباسين وربما وعدهم بتبعية اسمية مع الاحتفاظ بالاستقلال السياسي عن السلطة الخلافة وتأثيراتها؛ وأثمرت سياسة سمغو بن واسول و ساد الاستقراء في إمارته غيران ابنه الياس الملقب بالوزير الذي خلفه حاد عن أبيه فثار عليه أهل

---

[1] و جاء أهل سجلماسة قبضوا علية و شدوا وثاقه إلي اصل شجرة فى سفح جبل ثم طلوه بالعسل و تركوه حتى قتله النحل والحشرات (ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 152).

سجلماسة سنة 173هـ وخلعوه ونصبوا أخاه إليسع الملقب بأبي المنصور 208/173 هـ.

ويمكن القول، أن اليسع بن سمغو المدراري هو المؤسس الحقيقي لإمارة بني مدرار فقد استطاع هذا الأمير أن يرسي دعائم إمارته ويكرس السلطة الكاملة لبني مدرار في سجلماسة التي اصبحت في عهدة مركزا سياسيا مهما حيث أتم بناءها و تشيدها واختلط بها المصانع و القصور[1] و اتبع سياسة شديدة إزاء القبائل المعارضة لحكمة كما أولي اهتمامه إلي الحركة العمرانية في المدينة إلي إحياء لكل قبيلة حيها مما كان له اثر مباشر علي الأمن والاستقرار فيها كما ترتب علية ازدهارها وتقدمها فأصبحت حاضرة و مركزا من مراكز الحكم القوية في بلاد المغرب الاسلامي.

وتولى بعد اليسع ابنه مدرار الذي لقب بالمنتصر وللأسف فان المصادر لا تمدنا بمعلومات عنه سوي ما يتعلق بالصراع الذي نجم عن تولية ابنه ميمون "من زوجته أروى وهي ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير الإمارة الرستمية المعاصرة لهم ".

وكان ميمون هذا قد استبد بالأمر وأساء السيرة في رعيته فخلعة أهل سجلماسة ونصبوا أخاه الأخر ميمون " من زوجته تقية " ومكث الأخير يحكم الإمارة حتى سنة 263هـ وفي عهد ابنة محمد بن ميمون تفاقم خطر الفاطميين علي إمارة بني مدرار وبدأ يهددها بالقضاء عليها ولكن في عهد عمة اليسع بن مدرار حال دون قيام الفاطميين بتحقيق أهدافهم حيث استطاع اليسع بن مدرار القبض علي عبيد الله المهدي منظم الدعوة الفاطمية ورأسها وابنة القاسم في مدينة سجلماسة وإيداعها السجن إلي أن زحف أبو عبد الله قائد الجيوش الفاطمية نحو سجلماسة و أسقطها و حررهما من السجن سنة 290هـ.

---

[1] ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا و الخبر ج6،ص 268 .

غير إن السلطة في مدينة سجلماسة عادت مرة أخري إلي بني مدرار حيث ثار أهل سجلماسة علي عامل الفاطميين و قتلوه و قدموا علي أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار الملقب بالرسول سنة 298هـ ثم خلفه أخوه أبو العباس احمد سنة 300هـ و لكن الفاطميين أطاحوا به سنة 309 هـ ثم استمر الصراع حول السلطة بين أسرة بني مدرار إلي أن تولي محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار سنة 332هـ و تلقب بالشكر لله وقطع العلاقات مع الفاطميين و نبذ أراء الصفرية الخوارج وأخذ بمذهب أهل السنة وتسمي بأمير المؤمنين وكان الشاكر لله عادلا حسن السيرة و لكنة كان يمثل خطرا علي النفوذ الفاطمي في المغرب الاقصي وعلي الرغم من الحملة العسكرية التي جردها الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله و دخولها سجلماسة سنة 347هـ و قتلها الشاكر بالله فان السلطة السياسية في سجلماسة استمرت في بني مدرار حتى سنة 354هـ فقد حكم ولدا الشاكر وهما المنتصر بالله 347-352هـ و المعتز بالله 352-354هـ

العلاقات السياسية

بنو مدرار والخلافة العباسية:

لقد انصرف اهتمام الخلافة العباسية وولاتها في القيروان إلي الاحتفاظ بأفريقية فأسقطوا أقاصي بلاد المغرب التي ينتشر قيها نفوذ بني مدرار من حسابهم بعد أن انسلخت فعلا عن نفوذهم و ذلك بفضل النضال القاسي الذي قام به الخوارج الصفرية مع ولاه بني عباس و الذي استمر روحا من الزمن تعرضوا فيه إلي التنكيل من المطاردة والبطش ما أفضي بهم إلي الانطواء داخل بلادهم النائية ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إعداد الجيوش من سجلماسة لخوض حروب مع الجيوش العباسية ربما تكون غير مأمونة العواقب ومن الناحية المبدئية فقد اتخذت العلاقات شكل عداء لم يصل إلي درجة معقدة يتطلب معها قيام الحروب بين المدراريين و العباسين، وذلك لان كلا منهما شغل بمشكلاته الذاتية عن مناجزة خصمه وبمرور الزمن فإن الموقف العباسي اخذ يتسم بالاعتدال إزاء المدراريين.

ويخيل إلينا أن السبب في عزوف بني مدرار عن مناجزة العباسيين، ربما يقوم علي أساس أن الأمراء سجلماسة هم بمثابة عمال للعباسيين وهم يعترفون بالتبعية لهم و يدعون إليهم أو انهم كانوا يدخلون في علاقات التبعية للعباسين رويداً رويداً، أو كانوا يتبعون بغداد اسمياً و لعل المداريين إنما وقفوا هذا الموقف بسبب التهيب المشوب بالخوف من ولاة الخلافة في المغرب الاسلامي من أمثال يزيد بن حاتم [1]و خلفائه ممن عرفوا بقوه البطش و ملاحقة حركات الخوراج إن قدام سمغو بن ماسول في إقامة الخطبة للخليفة أبي جعفر المنصور و ابنة المهدي من بني العباس في بلادة يدخل في إطار مبدأ (التقية) الذي تجيزه أراء الخوارج و تحاشيا لأخطار محدقة بإمارته و هي ما تزال بعد فتيةً.

ولكن ما دام العداء تقليديا و مستحكما بين العباسين و الفاطميين فإن أية قوة في العالم الاسلامي تفادي احدي هاتين القوتين، لابد وأن يفهم إن موقفها من الطرف الأخر ودي وأن المصادر في الأقل توحي إلي هذا الفهم، إن بوضوح أو من طرف خفي، ولما تبين موقف بني مدرار المعادي للفاطميين، أوحي أن علاقاتهم كانت ودية مع العباسين حتى أوصلتها بعض المصادر إلي حد التحالف بين الطرفين.

من المحتمل تقرب الشاكر لله احد أمراء المداريين من العباسين ربما كان لغرض التأليب ضد الفاطميين و بخاصة عندما اخذ هذا الأمير بمبدأ أهل السنة و ضرب العملة باسمة و لقب نفسه بأمير المؤمنين و لكي لا يصح أن نؤكد التعميم حتى ولو أشار القلقشندى إلي أن الشاكر لله " دعا لنفسه مموهاً بالدعاء لبني العباس"[2]

---

[1] وهو يزيد بن حاتم بن قصيبة بن المهلب بن أبي الصفرة و هو أول وال في بلاد المغرب الاسلامي (انظر ابن عذاري – البيان المغرب ج 1 ص 87 ابن الخطيب أعمال الأعلام ج 3 ص 8-9 .

[2] القلقشندى، صبح الاعشي في صناعة الانشاج ،ج5 –ص167 .

أما حادثة وقوع عبيد الله المهدي [1] رأس الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب و معه ابنه أبو القاسم [2] في قبضة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار و إيداعه السجن في مدينة سجلماسة لا يعرف فيما إذا كان بإيعاز من الخلافة العباسية أو وفقاً لمشيئتهم أو ترضية لهم أو كان الحادث عرضيا كما أنه لا يمكن أن تعتمد بعض الروايات المضطربة كذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بني مدرار و بني العباس، لان أمير سجلماسة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار كان علي مذهب أهل السنة بما تدين به الخلافة في الوقت الذي كان هو علي مبدأ الخوارج[3].

ومهما يكن من أمر، فلا يصح اعتبار حادثة سجن عبيد الله المهدي قرينة علي توطد العلاقات العباسية المدارية، فأجراء اليسع بن مدرار لا يستهدف "مرضاة الخليفة " لأنه كان علي طاعته و لكن يمكن القول أن عبيدالله المهدي كان يمثل خطراً على سائر كيانات المغرب فضلاً عن أن أليسع بن مدرار كان معروفا بالحذر والقوة وكان يستريب من أي داخل إلي حاضرته أو مستجير بها أو لائذ إليها، فلا بد أن يستوقفه فيما يقوم به عبيد الله المهدي من التجوال في بلدان المغرب الاسلامي وإغداقه الأموال والهدايا علي حكامها.

وفيما يتعلق بالخطر الذي يمثله الفاطميون علي مسرح الأحداث في المغرب يجعل بني مدرار في حذر تام منة و خصوصاً في عهود أواخر أمرائهم و لكن بالنسبة للخطر العباسي فقد فات أوانه فهو الآن لا يشكل تهديدا مباشرا لإمارة بني مدرار و للمبدأ الصغرى الخارجي كما هو الحال في المشرق الاسلامي حيث عمد العباسيون إلي استئصال شأفة الخوارج الصفرية في مدينه قنسرين و منطة

---

[1] و هو أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ابن عذاري، البيان المغرب ج 1 ص 158 - 159 ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 50 .

[2] و قد أصبح يعرف بالخليفة القائم بأمر الله بعد أن حكم بعد أبيه.

[3] أورد بن خلدون روايتين في هذا الصدد اولاهما أن الخليفة العباسي المعتضد بالله هو الذي أوحي إلي بن مدرار بالقبض علي عبيد الله المهدي فيما يذكر في الرواية الثانية أن اليسع استجاب لطلب الخليفة العباسي المكتفي بالله كما أن هاتان الروايتان لا تحددان ما إذا كان الخليفة العباسي أم الأمير الا غلبي هو الذي بعث ليبحث اليسع علي القبض علي عبيد الله المهدي(العبر و ديوان النبأ أو الخبر ج 2 ص 350-351)

الموصل و بلاد الجزيرة الفراتية وأرض السواد في العراق فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم ولكن هل أن علاقات بني مدرار المبنية علي العداء مع الأغالبة الذين كانوا يدينون بالولاء السياسي و التبعية للعباسين ينعكس سلباً مع علاقاتهم مع الخلافة أم إن ذلك ينحصر في السياسية التي كان يتبعها الأغالبة بعيدا عن التأثير العباسي؟ إننا نقرأ عن تعرض فقهاء الصفرية و أتباعها لاضطهاد الأغالبة ووصمهم بالزندقة و المروق عن الدين و تشتيت اجتماعاتهم أثناء الصلاة في المساجد وتبديد حلقاتهم في مدينه القيروان ومنعهم من مزاولة مهنه تعليم الصبيان وتأديبهم وملاحقة المخالفين منهم وتعريضهم لمزيد من البطش والتعنيف.

علاقة بني مدرار مع بني رستم:

كانت العلاقات بين الطرفين قد اتسمت بطابع ودي ربما كان ذلك بسبب مواجهتهم عدواً مشتركاً واحداً هو الخلافة العباسية التي كانت تنظر إلي الخوارج بصوره عامة –صفرية أو اباضية، أعداءاً تقليدين لها كما أن الرستميين ربما في هذا الموقف آوتوا مرونة وبعد نظر سياسى فضلاً عن استيعابهم للظروف التي كانت تلف المنطقة بأسرها فقد غضوا الطرف وتحاشوا الخلافات مع جيرانهم المدراريين بخاصة الذين شعروا بانهم يرتبطون وإياهم بوحدة المصير المشترك فكانا دوماً يظهرون مودتهم لبني مدرار ورغبتهم في السلام والموادعة الأمر الذي جعل بني مدرار يستجيبون لهم وذلك علي الرغم ما كلف الرستمتين كثيرا من التغاضي و التضحيات والظاهر إن السبب الذي دفع بني رستم إلي هذه السياسية مع المدراريين ربما يكمن في إن عدة ألاف من الخوارج الاباضية كانوا يقيمون في سجلماسة قد لعبوا دوراً في مناهضة أمرائها وإنهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ الاباضية أكثر من ولاتهم للإمارة التي كانوا يعيشون في كنفها، وقد درجوا علي إرسال زكاة أموالهم إلي مشايخهم في تاهرت ليصرفوها حيث شاؤا[1]. وعندئذ فلابد للرستمين من تولية الظهر لكل شقاق و الإحجام عن إذكاء الفتن التي كانت تبرز من خلال احتكاك أنصار المبدئين أو الأقليات في كلتا الأمارتين كما أن

---

[1] د. محمود اسماعيل –الخوارج في المغرب الاسلامي ص 159.

المصاهرة السياسية التي عقدت أواصرها بين الرستميين والمدراريين [1] خففت كثيرا من غلواء تطرف بعض الفئات التي لم يكن يروق لها أن تري الرستميين يوادعون بني مدرار ويسالمونهم [2] وساهمت علي تحقيق التضامن والوئام بين إمارتي الخوارج وعزوف كل منهما عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الأخر [3] .

علاقة بني مدرار مع الأدارسة:

كان طابع العداء هو الغالب علي العلاقات السياسية بين المدراريين و الأدارسة و لعل السبب يكمن بالدرجة الأولي في الخلافات المبدئية فالمعروف أن الخوارج عموما و الصفرية بصورة خاصة كانوا يضمرون عداءا تقليديا للعلويين و للأدارسة لزيد بين علي وجه الخصوص كما أن العامل التاريخي في رسم العلاقات بهذا الإطار يمكن استقراؤه بوضوح من خلال عوامل قيام ادارة الأدارسة في المغرب الاقصي سنة 172هـ-789م الذي كان علي حساب الخوارج الصفرية ونفوذهم في هذه المنطقة حيث اكتسح الأدارسة كل وجود للقبائل التي تدين بالمبدأ الصفري و عرضوها للبطش و التنكيل وأصبح لا مناص للطرفين من خوض الصراع ضد بعضهما ومن المرجح أن الأدارسة كانوا وضعوا خطة لتصفية الخوارج الصفرية و لكنهم علي ما يبدوا عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد و تفاقمه مع الأغالبة الذين سخرتهم الخلافة العباسية لمناهضة الأدارسة فقد نجحوا في إثارة القلاقل وحبك المؤامرات في وجه أمراء بني مدرار و العمل علي القضاء عليهم و تصفيتهم [4].

---

[1] تم تزويج (اروي)ابنة عبدالرحمن بن رستم من (مدرار)الذي تغلب علي أخيه(ميمون)من امرأة أخري بويع أميرا على سجلماسة.

[2] يقول النفوسي: (و قبل الإمام رغم اعتراض المعترضين و المنكرين) الإزهارالرياضين ج2،ص92 .

[3] د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 105 .

[4] اغتالوا إدريس بن إدريس (الأول)173-177هـ بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد اغتاله سليمان بن جرير المعروف بالشماخ .ثم اغتالوا إدريس الثاني 187-213هـو كذلك مولاهم ارشد الذي كان صحب إدريس الأول من المشرق الاسلامي (البكرى-البيان المغرب ج 1 ص 210-211- لسان الدين بن الخطيب - أعمال الأعلام ص 192-194-202 .

وعلي الرغم من أن المدراريين كانوا يسعون في الخفاء للقيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به الأدارسة ولكن ظروف المنطقة لم تكن تسعفهم لتحقيق مسعاهم حيث تصاعد الخطر الفاطمي وبات يهدد الجميع فعليهم أن يتدبروا و سائلهم لتنادي هذا الخطر في الوقت الذي لم يكن وصفهم يسمح لهم في الوقوف أمام الزحف الفاطمي المتفاقم في جميع أنحاء المغرب الاسلامي و افريقية.

والظاهر أن الطرفين لم يعدما وسائل المكائد والدسائس ضد بعضهم البعض فقد اتخذ العداء السياسي بينهما مظاهر من الفعل ورد الفعل كان الأدارسة يمسكون فيها بزمام المبادرة فيم كان بنو مدرار يلوذون بالصمت حيناً ويتصدون لمواجهته حين أخر وأوضح صوره لهذا الصراع ما قام به الادراسة من غزو المدراريين الذين كانوا ثلاثة أضعاف جيشهم ولكن رغم ذلك فإن الأدارسة أوقعوا فيهم الهزائم ووصلوا في غزوهم إلي مدينة تلمسان التي تضم قبائل موالية للمدراريين ولم يستطع المدراريون في مدينة سجلماسة من إنجاد إخوانهم في تلمسانة واستنقادهم من ضربات الأدارسة ويعزي ذلك إلي استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان إلا عبر أراضي إمارة الأدارسة حيث كان الطريق إليها يمر بدرعة وفاس ومنها إلي تلمسان.

ومن المرجح أن بني مدرار كانوا يحرضون زملائهم من الخوارج الصفرية المقيمين في غاس ضد الأمراء الأدارسة يذكر البكرى معلومات حول قيام عبد الرزاق الصفري و هو من عدوه الاندلسيين داخل مدينة فاس بثورة ضد الأمير علي بن عمر بن إدريس وفشلها، ولكن هذا المؤرخ لم يشر إلي أن هذه الثورة كانت رد فعل من جانب بني مدرار وان عبدالرازق الصفري هو احد صنائعه[1] ولكن من المؤكد أن هذه الثورة أحدثت تصديقاً في إمارة الأدارسة مما جعلت المدراريين يعدون العدة لبسط نفوذهم واكتساح الأدارسة لكن جهودهم في هذا الصدد باءت بالفشل وذلك بسبب تعرض بلادهم للخطر الفاطمي.

---

[1] ويسميه لسان الدين بن الخطيب (عبد الرازق الفهرى الخارجي)أعمال الأعلام ق 3 ص 208 و يضيف البكرى إلي أن هذا الثائر كان أصله من الإندلس ومن مدينة وشتة الواقعة في إقليم اراكون بأسبانيا(المغرب ص 125).

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

1-إمارة عبد العلي بن السمح المعافرى

2-الإمارة الرستمية وتاسيس مدينة تاهرت

3-العلاقات السياسية

ا-الرستميون والخلافة العباسية

ب-علاقات الرستميون بالأدارسة

ج-العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

144-336هـ/761-947م

إمارة عبد الاعلي بن السمح المعافرى 140-144هـ/757-761م[1] :

وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، عربي من اليمن اختاره أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري الذي كان من أبرز علماء الخوارج الاباضية لينضم إلي ما عرف بتاريخ الإباضيين "حملة العلم الخمسة "[2] لقيادة الثورة الاباضية في المغرب و لرئاسة الإمارة الاباضية المقبلة و ذلك لغزارة علمه وتفهمه العميق في الدين و مهارته في الاستنباط و للتأكيد علي تغليب العنصر العربي في هذه الحركة وإعطائها طابعاً عربياً في بلاد المغرب الاسلامي.

وقد استطاع عبد الاعلي بن المسح إعلان قيام إمارته في موضع غربي طرابلس يعرف باسم (صياد)ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى تمكن الإستيلاء على طرابلس واتخذها مركزاً وقاعدة له مما ساعده علي بسط سيطرته علي المنطقة الواقعة من برقة شرقاً حتى القيروان غرباً وإلي فزان جنوباً.

غير إن الحركة التي كان يتزعمها عبد الاعلي بن عبد السمح المعافرى فشلت بسبب تخلي القبائل المغربية عنه في وقت عصيب كان قد تعرض له، ربما علي اغلب الاحتمال إن سياسته التي اتبعها في تنظيم الجيش باستبعاد بعض العناصر دفعت هذه القبائل لهذا الموقف، حتى إن بعضهم من الإباضيين علي حد قول ابي

---

[1] انظر الفصل الثالث "عصر الولاة " ص 15.

[2] تركزت دعوة الاباضية في المغربيين الادني و الأوسط و تحمست لها بعض قبائل المغرب ورغبوا في التعمق في دراسة مبادئها ولكن لم يكن لهم أن يحققوا ذلك الا في المشرق فرحل فريق من علمائهم إلي البصرة للأخذ علي ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة وكان قد رحل إلي هناك خمسة أطلق عليهم "حملة العلم الخمسة" في مقدمتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان وعاصم السدراتي من غرب الاوراس وأبو داود القبلي النفزاوي من قبيلة نفزة جنوبي افريقية واسماعيل بن ضرار الغدامسي من غدامس جنوبي طرابلس (سليمان الباروني مختصر تاريخ الاباضية ص 35).

زكريا بعد مقتل عبد الاعلي " انتقموا وتشفوا بالجند الموالين لأبي الخطاب وأخذوا يمعنون في البطش فيهم "[1] أما العامل الأخـر الـذي أودي بالحركـة الاباضـية السياسية والعسكرية التي كان يقودها عبد الاعلي بن السمح فهو الموقف الـذي اتخذه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور حيث أوعز إلي عامله محمد بن الاشقت الخزاعي بتجريد جيش سنة 142هـ لاجتياح طرابلس و سحق الجيوش الاباضية غير إن الجيش العباسي بقيادة عمرو بن الاحوص القجلي هُـزم أمـام الجـيش الإباضي في منطقة "مغمداس"[2] وربما هي غدامي الحالية، مما جعل الخليفة يهتم بمعالجة توسع الحركة الاباضية و تهديدها للنفوذ العباسي في المغـرب و مصـر وحتى في بلاد الشام فأوعز إلي والي مصر محمد بن الاشعث مرة أخري بتـولي افريقية التي كانت وليت إلي عبد الرحمن بن رستم قاضي طرابلس الذي ولاه إياه رفيقه في العلم عبد الاعلي بن السمح[3] .

لقد أعد العباسيون في هذه المرة جيشاً يقول عنه بن عذاري بأن عدته أربعون ألف مقاتل [4]عهد بقيادته إلي ثمانية وعشرين من القواد في مقدمتهم الأغلب بـن سالم التميمي [5]والمحارب بن هلال [6]والمخارق بن غنار الطائي [7]وقد زحف هذا الجيش بعدته نحو مدينة برقة واتخذ من مناطقها القريبة قواعد لعساكره يترقـب الفرصة للانقضاض علي الإباضيين وإبادتهم وتخليص النفوذ العباسي وسطوته من

---

[1] السيرة و أخبار الأئمة الورقة 12.

[2] وجاء عند مزاري مقداس علي شاطئ البحر البيان المغرب 1 ص 71.

[3] ومعروف أن اختيار عبد الاعلي لرفيقة عبدالرحمن بن رستم و هو من حملة العلم الخمسـة ليكـون قاضيا في طرابلس كان له أهمية كبيرة في التاريخ اللاحق للحركة الاباضية و نجاحها في إقامة الإمـارة علي اسس صحيحة بعيدة عن الأخطار المحتملة التي كانت تسببها له الجيوش المعادية من حين لأخر.

[4] البيان المغرب ج 1 ص73.

[5] وهو أبو عقال بن خفاجة التميمي اشتهر بالرأي و الشجاعة قدم المغرب مع محمد بن الاشقت الـذي ولاه علي طنبة قاوم الخوارج إلي أن أصيب بسهم بالقرب من تونس فقتلة سنه 150هـ و هـو والـد إبراهيم مؤسس امارة الأغالب (السلاوى-الاستقصا لأخبار المغرب الاقصي ج 1 ص 129-130.

[6] انظر ترجمته في بن خلكان وفيات الأعيان ج 4 ص 101-102

[7] انظر ترجمته فى ابن شاكر الكبتى، فوات الوفيات، ج2 ص216.

التهديد؛ فيما حشد الإباضيون جيشا لا يبالغ المؤرخون كثيراً في تعداده بقولهم في انه يزيد عن مائتي ألف مقاتل وقد عسكروا بهم في منطقة "سرت"[1] ونتيجة للخطة العسكرية الذي وضعها محمد بن الأشعث الخزاعي[2] فقد سحق الإباضيون وهُزموا وقُتل الكثير منهم، حتى أن عبد الرحمن بن رستم لم يستطع أن يقوم بإنجاد رفيقه عبد الأعلى، بل آثر الانسحاب من المغرب الادني بعيداً عن الضربات المتوقعة التي قد يقوم بها العباسيون في المستقبل والاحتماء في منطقة المغرب الأوسط.

---

[1] سرت مدينه ذات سور صالح كالمنيع من طين و طابية و فيها قبائل لهم مزارع تقصد نواحيها إذا أمطرت و تنتجع مراعيها و هي على سيف البحر -عذبة طيبة و أصلها من احسن خلق الله خلقا (أبو عبيد البكرى- المسالك والممالك ج 2 ص 651 -بن حوقل).

[2] تظاهر محمد بن الاشعث بالانسحاب من ملاقاة الاباضيين في ساحة المعركة و في محاوله الالتفاف عليهم كما انه استغل النزاع الذي نشب بين أهم عناصر الجيش الاباضيين من قبيلتي زناتة و هوارة حيث اتهمت زناتة أبا الخطاب عبد الاعلي ميله مع هوارة مفارقة جماعة فهم (ابن عذاري - البيان المغرب ج 1ص 73).

الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت

144-283هـ/ 761-896م

استطاع عبد الرحمن بن رستم، أن ينأى بعيد عن متناول الجيوش العباسية و حلفائها من القبائل و بدأ يعد العدة لوضع الأسس الكفيلة لإقامة كيان سياسي مستقر علي غرار ما كان سائد في المغرب الادني و بعد سنتين من الفشل الذي مني به الإباضيون بإقامة امارة مستقلة هناك توصل إلي ما يفيد بقيام إمارته و إحكام عوامل بقائها و توسيع نفوذها و توطيد أركانها واستقطاب القبائل الأخرى لمناصرتها واغلب الظن إن الاباضيين والقبائل الموالية لهم لم تعد سهلة الانقياد كما كانت في السابق، حيث هدرت دماء رجالها بسخاء أمام الجيوش العباسية و لم تحتفظ بالكيان التي ناضلت من اجله فقد انتزعت قاعدتهم طرابلس منهم لذلك شرطوا مبايعتهم لعبد الرحمن بن رستم بتأسيس قاعدة يمكن الدفاع عنها فدأب علي اختيار موضع يبني عليه مدينة تاهرت لتكون مقرا لإمارته و علي سفح جبل جزول المرتفع القريب ممن منطقة " تياريت " الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر شرع بتخطيط المدينة وحفر الأسس لأسوارها سنة 144هـ، وبعد أن شيدت وأصبحت معقلا عمرانيا و سياسيا وحضاريا و توطدت أسس الإمارة و أركانها و ترسخت دعائمها و قواعدها بايعت القبائل عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة 160هـ مما أتاح للإمارة القدرة للدفاع عن نفسها و كانت قبيلة نفوسة في مقدمة القبائل التي بايعته لذلك انصرف لتنظم تاهرت حاضرة إمارته و قاعدتها فاستقطب كثيرا من القبائل و مثلها في مجلس للشورى وجعل نفسه مسئولا أمام الدعاة و الاباضيين عامة عن تنفيذ كل ما ينص علية مبدأ الشورى، وليس لدية أية صلاحيات باتخاذ قرارات تمس المصلحة العامة بدون التشاور مع المجلس المستشارين الذي كان يتألف من الخوارج" الشراة " وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها وفي عهد عبد الرحمن بن رستم كان مجلس المستشارين مؤلف من سبعة من خيرة رجال الإمارة أصحاب الصلاح والزهد والعلم وهم مسعود الاندلسي و عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وعمران بن

مروان الاندلسي وأبو الوفق سعدوسي بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ومصعب بن سدمان ويزيد بن فندين [1]

لقد عرف عن عبد الرحمن بن رستم إشاعته للعدل بين الرعية وعدم الاستئثار بالحكم كما انه استأصل عوامل الفتنة و الاضطراب فاستتب الأمن وأصبحت تاهرت دار أمان لمن يقصدها من المغرب أو المشرق و قد حرص الإباضيون أن تكون مدينتهم في موقع "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض قابل للعمارة مأمون من العدو" [2] وفي مكان مرتفع وملائم للرعي ليكون منتجعا صيفيا للقبائل الرعوية في شمال الصحراء. وفي غضون سنوات قليلة اصبحت تاهرت مدينة عامرة تقوم فيها تجارة نشطة تعتمد علي موانى عديدة أهمها مرسي فروخ وميناء مرسي تنس وميناء مرسي ستغانم و ميناء مرسي وهران، وهذه الموانى تربط الإمارة الرستمية بالإمارات و الدول الإسلامية في المغرب والأندلس ومن الجدير بالذكر أن اليعقوبى[3] والمقدسي[4] و ابن حوقل[5] و البكرى[6]،وصاحب كتاب الاستبعاد في عجائب الأمصار[7] وياقوت[8] ذكروا معلومات مفيدة عن المدينة منذ القرن الثالث الهجري و حتى السابع مفادها أن المدينة تطورت منذ أن اختطها الإباضيون فأصبحت حاضرة للإمارة و قصبة لعديد من المدن الصغيرة والقرى ومركزا من مراكز العلم في العالم الاسلامي .

---

[1] النفوس، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101 .

[2] م. ن ، ص 6 .

[3] قال عنها "المدينة العظمي و تسمي عراق المغرب، التاريخ ج 1 ص 153.

[4] ذكر لها أوصافا دقيقة ثم قال عنها بأنها بلد كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الهواء (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 228).

[5] وصفها في القرن الرابع الهجري من النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية (صورة الأرض ص86).

[6] تحدث عنها في القرن الخامس الهجري نذكر أبوابها الأربعة و موقعها و أشار إلي زراعتها و مناخها (المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66).

[7] مجهول يصفها في القرن السادس الهجري و قال عنها بأنها مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر ثم يصف موقعها و أحوالها الاقتصادية وزراعتها (ص 178).

[8] قال عنها في بداية القرن السابع الهجري أنها مدينة جليلة و كانت قديما تسمي عراق المغرب (معجم البلدان ج 2 ص 8).

ويعقد الدكتور الحبيب الجخاني فصلاً مهماً في تطور الحركة العمرانية في تاهرت فيقول أنها في بداية أمرها كانت مدينة متقشفة متواضعة يسيطر عليها مظهران، مظهر المعسكر والمظهر الديني وقد غلبت عليها شخصية عبد الرحمن بن رستم الزاهد الورع الذي كان يدير بنفسه شؤون الإمارة و المدينة معا وقد جاء هذا التطور نتيجة لازدهار اقتصادها و لاسيما تجارتها و من المنشآت المعمارية في تاهرت، دار الإمارة ولكن ابرز اثر معماري في خطط المدينة هي القصبة المشرفة علي السوق و تعرف "المعصومة " [1].

ونظراً للصلات الروحية و الترابط المبدأي بين إباضي البصرة في العراق وبين إباضي المغرب حيث تخرج حملة العلم الخمسة المقاربة من هناك، فقد إلتزم إباضيو البصرة بدعم الإمارة الرستمية الاباضية مادياً و روحياً فأرسلوا إليها الأموال وأفتوهم في مشكلاتهم السياسية والمذهبية وتدخلوا لتسوية خلافاتهم بإبداء النصح لهم وإرسال البعوث والرسل، وقد عبر إباضيو البصرة عن اعتزازهم بالإمارة الرستمية التى حققت آمالهم فى تطبيق مبادئهم وبعدم ترددهم عن مساعدتها بالأموال، فيشير بن الصغير المالكى إلى أن إباضيي البصرة جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم[2] وقد قرر المغاربة قبول مساعدة زملائهم لحاجتهم إلى كل ما من شأنه أن يقوى دعائم إمارتهم. وساهمت هذه المساعدة المالية فى توسيع نطاق العمران فشرعوا فى إجراء الأنهر و اتخاذ الأرجاء والمستغلات، ومن المحتمل أن السلاح

---

[1] المغرب الاسلامي ص 107-117.

[2] يذكر وصول الوفد البصري إلى تاهرت حيث دلهم الناس على دار عبد الرحمن بن رستم فوجدوه فى غاية البساطة فقد كان هو نفسه يقوم ببناء داره (سيرة الأئمة الرستميين ص15)ثم انظر تفصيلات مهمة عن ذلك عند الباروني، كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ج2 ص85) د.السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص570-650 .

الذى ابتاعـوه كان بفضل أموال البصريين[1]، وقد ساهم فـى قـوة تسـليحهم ومكنهم فى بسط سيطرتهم وسيادتهم على أكثر قبائل المغرب داخل حدود إمارتهم وخارجها كما أن هزيمة الجيوش المناوئة لهم سنة 151هـ وفـر لهـم ظروفـاً لإرساء إمارتهم وأقنعهم بضرورة تقوية مدينة تاهرت لتكون مركزاً يتمتع بالمنعة والقدرة على الصمود والبقاء.

لقد اصطبغت الأحوال السياسية وحتى أزمات الحكم التي كـان يتعـرض لهـا الإباضيون والمعارضة والثورات والانتفاضات بالطبيعة الدينية، حيث أن الإمـارة قامت علي عصبية قبيلة، ولكن عبد الرحمن بن رستم نجح إلي حد مـا بتأسـيس رابطة مبدئية لقبائل المغرب من البتر التي وحدتها الدعوة الاباضية أما الأزمـات السياسية التي واجهها نظام الحكم، فقد كانت علي الأغلب بسبب تصـدع الـدعوة واختلاف آراء الدعاة في الذود عـن مبـادئهم وحمايتهـا مـن أيـة انحرافـات وانشقاقات.

والظاهر أن العلاقات التي كانت سائدة بين الخوارج المغـرب عمومـاً و بـين خوارج المشرق و لاسيما إباضيي البصرة، ذات طابع سياسي أكثـر منـه دينـي نلاحظ من ذلك خصوصاً من التوجيهات التي كانت تصدر عن إمام الاباضـية فـي البصرة ابي عبيد مسلم بن ابي كريمة إلي رفاقه إباضيي تاهرت ويمكن أن نستنتج من رسالة هذا الأخير التي أرسلها إلي دعاته في المغرب في أوائل القرن الثـاني الهجري، أن الإمارة الرستمية الاباضية ظلت متصـلة سياسـياً وفكريـاً ودينيـاً بالتنظيمات السرية في البصرة، ولعل أوضح ما يشير إليه بخصوص هذه العلاقات

---

[1] يعتقد فروخى، أن هذه الأموال كان قد بعث بها خوارج البحرين

Faghy, Dr.Persian, dansby in North Africa, the Rustamides, the Islamic Review,P14.

فيما تؤكد المصادر الإباضية أنها من خوارج البصرة وربما أن خوارج البحرين أرسلوا هذه الأموال إلى البصرة عند يوجد مشايخ الاباضيين فأرسلوها بدورهم إلى المغرب(أبو زكريا، السـيرة وأخبـار الأئمـة الورقة 14).

الوطيدة قوله:" فلعمري لقد سرني ما انتهيتم إليه من أمركم وإن كان ذلك لم يخف عنا، غير أنا لم نظن الذي كتبتم به إلي ثم يقول: " أتانا كتابكم بمسائل فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها ومنها ما رأيت إلا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير إلا الذي رأيته أصلح لجماعتكم وأقوم بشأنكم وأرفق بضعيفكم وأعطف لقلوبكم وأجمع لأموركم "(1).

لقد انتهج عبد الرحمن بن رستم، سياسة تقوم علي المحافظة علي إمارته الناشئة من أية أخطار محتملة قد تتعرض لها، فعمل علي توطيد حكمة وتدعيم اسس إمارته، و إرساء نظمها في الحكم والإدارة، فكسب الأتباع والأنصار واسترضاءهم واستكمل إعداد جيشه بتعبئة جنده وتوفير الأسلحة والمعدات ليجعله علي أهبة الاستعداد للدفاع عن إمارته، والتزم بسياسة المهادنة مع القوي الخارجية فحرص علي أن تكون علاقاته مع ولاته العباسيين وعمالهم بأفريقية طبيعية ولا يشوبها ما يعكرها، ثم سعي إلي المصاهرات السياسية التي ربما تخدم أهدافه في تعزيز مكانه إمارته بين إمارات المنطقة وقبائلها، فحالف بني مدرار بمصاهرة احد أمرائها وهو اليسع بن ابي القاسم [2].

وفضلاً عن ذلك، فقد اهتم عبد الرحمن بن رستم بالأمور الاقتصادية فأولي عنايته بشق القنوات والترع وإنماء العروس والبساتين وإقامة المطاحن وشجع الحركة التجارية فأوجد الفنادق والخانات للتجار وخطط الأسواق ورتبها ونسقها علي غرار أسوق المشرق، ووظف المحتسبين ونظم الاحتساب عليها لمراقبيتها والحفاظ علي نظامها، فأختلف التجار إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة من العراق ومصر وبلاد الشام والقيروان سجلماسة والسودان[3] .

---

(1) أبو عبيدة مسلم بن ابي كريمة، رسالة في أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582، الورقة 114.

(2) النفوسي و الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101.

(3) بن الصغير المالكي سيرة الأئمة الرستميين ص 13 -16.

ويلقي بن الصغير المالكي ضوءا مفيدا علي التطور الاجتماعي والاقتصادي والعمراني الذي أصاب مدينه تاهرت خلال فترة حكم عبد الرحمن بن رستم، فيشير إلي الأسواق المزدحمة والمساجد المتعددة المنارات العالية و الحمامات المتقنة ويحيط بها بساتين متنوعة ومطاحن منتصبة علي الأنهار الجارية واتخذ أهلها الفروش والستائر المزخرفة والخيل المسومة وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء[1]. وهكذا ففي اقل من عشر سنوات خطت الإمارة الرستمية خطوات ملموسة إلي الإمام وأصبحت بمصاف الدولة القوية في منطقة المغرب الأوسط فاكتسبت مهابة جيرانها فطلبوا محالفتها و هاجر إليها الكثير من المشارقة والمغاربة والاندلسيين و نزلوا تاهرت كما قصدها التجار والكتاب والعلماء ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف والمهن من سائر أنحاء العالم الإسلامي فأصبح سكانها خليطاً من العرب والسودانيين والأوروبيين من صقلية وايطاليا وأسبانيا كما نزلها الوافدون من الكوفيين والبصريين والمصريين والخرسانيين إلي جانب الطوائف الإسلامية فقد ضم السكان عدد من اليهود والنصارى الذين كانوا يزاولون الأعمال الاقتصاديون والعلمية والفنية ونقرأ عند المؤرخ بن الصغير المالكي قوله: " وانت تيهارت الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس احد ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم وابتني بين أظهرهم حتى لاتري دار الا قيل لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي "[2]

ومن الجدير بالذكر أن أكثر المعارضين للعباسيين وجدوا في الإمارة الرستمية خير ملاذ لهم تخلصاً مما يلحق بهم في المشرق من الملاحقة الاضطهاد وبخاصة العلويين الذين نزلوا في مدينة الخضراء وسوق إبراهيم ومدينه تمطلاس وجميعها تقع شمال تاهرت علي نهر شلف اذ تعد هذه المدن من قواعد الإمارة وأكبر مدنها

---

[1] سيرة الأئمة الرستميين ص 14.

[2] م. ن . ص 12- 13.

فضلاً عن حسنها وخصوبتها حيثما رسوا هناك مختلف المهن و الحرف فضلاً عن التجارة وما يتصل بها من مظاهر الحركة الاقتصادية [1].

وهناك حقيقة يمكن أن نقررها وهي أن منطقة المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى شهدت نوعاً من الاستقرار وسيادة الأمن في عهد عبد الرحمن بن رستم، فيما كان المغرب الاسلامي عامة يضطرم بنار الفتن والإضطرابات والثورات المستديمة فالإمارة الرستمية في عهد هذا الإمام هي اقوي عسكرية واقتصادياً من إمارتي الأدارسة أو الأغالبة مما أتاح لها أن تفرض وجودها كقوة سياسية لها تأثيرها علي سلام المنطقة وأمنها.

لقد حكم عبد الرحمن بن رستم من 160-171 هـ وكان قد عهد إلي سبعة من رجاله كانوا يؤلفون مجلساً للمستشارين يدير دفة الحكم وعلية أن ينتخب احد أعضاءه ليكون إمام للإمارة في حالة وفاته، وقد انتخب ابنه عبد الوهاب خلفاً لأبيه و الظاهر أن حكمه كان استمرار لحكم أبيه وحيث استقر الأمر له فساد الهدوء فيما عدا بعض الانشقاقات الفكرية داخل الحركة الإباضية [2].

ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رأي انه من المناسب لاستتاب الأمن في بلاده محالفة قبيلة لواتة بمصاهرة سياسية، حيث تزوج ابنة رئيس هذه القبيلة فمنع القبيلة من التحالف مع هوارة التي كانت تقف في صف أعداء الإمارة

---

[1] خرج عليه يزيد بن فندين و هو احد أعضاء مجلس المستشارين مستندا إلي أن مبدأ الخوارج الاباضية كان يقضي بالشورى دون الوراثة وراح يثير الفتنة و يؤلب علي عبد الوهاب و يطالبه بإقامة هيئة استشارية يركن إليها في الفتوى وتكون قراراتها ملزمة للرئيس ثم أنكر علي عبد الوهاب إمامته بدعوى انه يوجد من هو اعلم منة و أجدر بالإمامة (النفوس-مختصر تاريخ الاباضية ص 39)و بذلك انقسم الإباضيون إلي فرقتين نكارية ووهبانية فالأولي تنكر إمامة عبد الوهاب والثانية تسانده و هي الأكثر الساحقة من الاباضيين و قد انضم إلي النكارية الواصلية المعتزلة (جماعة واصل بن عطاء) و كان المعتزلة من قبيلة زناتة يؤلفون حزبا قويا شمال تاهرت فقاموا بثورة ضد عبد الوهاب استطاع هذا الأخير القضاء عليها (ياقوت-معجم البلدان ج 2 ص 8 النفوس المصدر السابق ص 116 محمد علي دبور تاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 481).

[2] انظر المصدر السابق.

الرستمية، كما انه دعي قبائل دمر الزناتية للانضمام إليه فاستجابوا لدعوته[1] ويبدو أن الظروف التي كانت تواجه قبيلة هوارة جعلتها في وضع حرج مما دفعها للاستغاثة بعبد الوهاب فلم يتردد في نجدتها.

وعلي أية حال، فان عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن علي الرغم مما تخللته انشقاقات و ثورات و حركات سياسية و فكرية، كان مرحلة ترسيخ الإمارة وتدعيم أسسها، ولكن بعد تولي افلح بن عبد الوهاب الإمامة علي اثر وفاة أبيه سنة211 هـ تأكد لدي الاباضيين استقرار مبدأ الوراثة في الإمارة، وهذا يمثل في نظرهم انتهاكا لتعاليم الخوارج الاباضية الذي كان يقوم علي مبدأ الاختيار والشورى في الحكم، ويذهب الدكتور الجنحانى إلي أن الإمامة الاباضية اصبحت تتنقل بالوراثة ولكنها تحاول أن تضفي علي نفسها مظهر الاختيار والشورى تغطية للتناقض الواضح بين مبدأ أساسي من مبادئ الدعوة والوضع الذي حالت إليه في تاهرت[2]. غيران خطراً جديدا بات يهدد كيان الإمارة الرستمية يتمثل في صراع العصبيات العنصرية والقبلية، ظهر إبان حكم افلح بن عبد الوهاب حيث استطاع في حينه بما أوتي من مرونة و حذق سياسيين أن يجنب إمارته منه وأن يتجاوز عواقبه بوسائل شتي، دلت علي براعته في الحكم والسياسة إلي جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة. كما انه شرع بالتخلي عن مبدأ المركزية في الحكم وعودته إلي مبدأ الشورى فكان مقتنعاً برأي مشايخ القبائل و رؤسائها و يأخذ بها عند تعيين الولاة و العمال والجباة ولا يقع تحت تأثيرات المقربين إليه من أسرته واعتراضاتهم وكان يراقب هؤلاء العمال ويجنبهم من التمادي في ظلم الرعية و

---

[1] كانت قبيلة هوارة خاضعة لوالي افريقية العباسي ولكنها استقلت 196هـ و احتمت في مدينة طرابلس فأوعز العباسيون للاغالبة بإخماد ثورتهم وإحباط محاولاتهم في الانفصال عن نفوذ العباسين فدخل الأغالبة طرابلس بيد أن الرستميين حاصروا المدينة لإنجاد القبيلة إلي أن خرج الأغالبة منها و عادوا إلي القيروان حيث كان الأمير عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد علم بوفاة أبيه فقرر العودة إلي القيروان لكي يظفر بحكم الإمارة قبل أن يستولي عليها احد من أخوته (النفوس المصدر السابق ص 144 ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج 5 ص 156).

[2] المغرب الإسلامي ص 124

إرهاقها في فرض الضرائب والمغارم عليها ،في الوقت أتاح لهؤلاء الولاة والعمال و الجباه مزيداً من السلطات ضمن مناطقهم[1] ومن نتائج هذه السياسة، الاستقرار الذي اتسم به عهد افلح بن عبد الوهاب وتأييد الاباضيين له كما "لم يبق في أيامه منازع ولا اجمع جهاته إلا طائع"[2] في الوقت الذي " ألقي بيده يمينا وشمالا وتمكن في إمامته واطردت له الأمور"[3].

حتى بلغت الإمارة الرستمية في عهده أوج نضجها السياسي وازدهارها و تخطت الأخطار المتمثلة بالفتن و الثورات، ولكن بعد وفاته سنة 258هـ/873م أصبحت الإمارة تواجه مرحلة عصيبة في تطورها السياسي و ظهور النزعات القبلية والعنصرية حيث تفجرت علي شكل حروب دامية أضعفت نفوذ الأئمة وقلصت صلاحيتهم وأدت إلي فقدان هيبتهم بين الاباضيين والقبائل المغربية المتحالفة معهم.

وربما يكون من المفيد أن نلقي بعض الضوء علي طبيعة العلاقات بين القبائل والعناصر التي تكون النسيج العام لكيان الإمارة الرستمية فمن المعلوم إن هذه الإمارة كانت تضم قبائل متعددة مثل هوارة ونفوسة ونزاتة وسدراتة ولماية إلي جانب مجموعات من أعقاب العرب الفاتحين وبعض الجند المغاربة و كانت نفوسة " تلي عند تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب علي الفسّاق "[4] أي أن منها القضاة والإشراف علي بيوت الأموال ومنها كذلك المحتسبين الذين يراقبون الأسواق فيمنعون المنكر، وهي وظائف لها أهميتها في الحياة العامة، كما أن بعض القبائل الأخرى ترغب في الانصراف إلي الزراعة أو

---

[1] يشار إلي انه اتبع شتي ضروب الجيل و اخذ بمبدأ " فرق تسد "فأوشي بين كل قبيلة و ما جاورها ثم" القي موجبات التحالف بين كل مقدم و أتباعه وبث الجواسيس بين القبائل (كفاه مؤونة القتال)ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 27 النفوسي، المصدر السابق ص 98-183

[2] الدرجيني، طبقات الاباضية ج 1 (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح) الورقة 191.

[3] أبو زكريا، السيرة و أخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 9030 ح الورقة 29)الشماخي السير ص 187.

[4] ابن صغير المالكي المصدر السابق ص 27.

التجارة أو اتخاذ المناطق القريبة من تاهرت مقراً لها وبعضها الآخر" اتخذ العين والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة " حيث زاولت الأعمال المالية واقتنت الخيول كما هو حال أهل المدن المتحضرون.

إن مكانة نفوسه وبعض هذه القبائل لدي الحكام الرستميين ومنزلتها في الوظائف العامة لا تقل أهمية عن مكانة العناصر الأخرى التي قيادة الجيش وتسيير الحياة الاقتصادية والسياسية، وكذلك بالنسبة لها عرف" بالرستمية" وهم أجناد من البيت الرستمي الذين تركزوا في بعض الوظائف الإدارية و" السمحية " أتباع عبد الاعلي بن السمح المعافري الموالين للرستمين والمقربين لهم، والظاهر أن هذه العناصر علي اختلافها بدأت تناضل من اجل السلطة ابتداء من الرستمية و السمحية والجند المغاربة والقبائل الضاربة حول تاهرت[1] ونتيجة للصراع بين هذه القوة السياسية من جهة و بينها وبين سلطة الرستميين من جهة أخري فقد استطاع أبو اليقظان محمد بن افلح 214-281هـ اخو الإمام الشرعي ابي بكر الذي نصب بعد وفاة أبية افلح بتأييد من قبيلة نفوسة التي كانت تتمتع بنفوذ سياسي كبير استطاع أن يستعيد مدينة تاهرت من الجند المغاربة ويفوز بالسلطة ويستأثر بها لنفسه ثم راح ينتهج سياسة معتدلة وينبذ التعصب لأي من القائل أو العناصر واتخذ مجلسا للشورى يضم شيوخ القبائل والنبهاء كما اتخذ سياسة

---

[1] علي أثر وفاة افلح بن عبد الوهاب نصبت قبيلة نفوسة ابنه الأكبر أبا بكر 211-240هـ غيران هذا الأخير كان زاهدا في الحكم و الإدارة فوطد صلاته بالجند المغاربة و صاهر زعيمهم محمد بن عرفه وسلمه مقاليد الإمارة فاستاءت القبائل من تسلطه و انضم أنصار الرستمية إلي نفوسه و لكن أبا اليقظان محمد بن افلح استطاع التخلص من محمد بن عرفة مما جعل هذه القوي تتحفز للخروج من الفوضى السياسية التي كانت قد عمت تاهرت فاستنكر الجند مقتل زعيمهم فيما وقفت الرستمية و السمحية إلي جانب الإمام أبي بكر و حاولوا الاستيلاء علي تاهرت عندئذ تضامن الرستمية مع الجند و الحقوا هزائم عدة فيهم و علي الرغم من انضمام الإمام و نفوسه إلي الطرف الأخر لكن الصراع أسفر عن انتصار الجند المغاربة و أرغم أبو بكر علي اعتزال الإمامة و لحق بأتباعه من الرستمية و السمحية مثل بني يقظان و لكن بالتبت قبيلة هوارة أن أقصت الجند المغاربة من السلطة و نصبوا أميرا علي تاهرت (للاستزادة انظر: د محمود إسماعيل الخوارج في المغرب ص 127).

التسامح إزاء أصحاب المذاهب و الفرق غير الاباضية[1]، وقد أجمعت المصادر الاباضية علي المصادر بسياسته وحسن سيرته وصلاحه[2] .

ويمتاز عهد أبي حاتم يوسف بن محمد بن ابي اليقظان 294/281هـ بالهدوء النسبي وذلك علي الرغم من قيام حرب أهلية في تاهرت سببها علي الأغلب تدخل الأمراء والحاشية في رسم السياسة العامة للإمارة وظهور الطوائف والفرق التي تخالف الاباضية وتغذي هذا الخلاف وتوجهه، ومن المحتمل أن اعتماده علي وجود القبائل ورؤسائها للقضاء علي مظاهر الفساد والفوضى قد أثمر في جعل الحياة العامة في مدينة تاهرت طبيعية لا يعكرها صدي الخلافات في البلاط الرستمي، و ربما كانت مبايعة مجلس الشورى بالإجماع في بداية حكمه قد مكنته من اتخاذ الإجراءات الكفيلة للقضاء علي مناوئيه السياسيين وإعادة الأمن إلي إمارته [3].

ولكن السبب في الهزيمة التي لحقت به و انتهاء عهده سنة 299هـ يمكن علي الأغلب بانتهاء دور القبيلة نفوسه واضمحلالها علي يد الأغالبة، فقد هُزم أهل جبل نفوسه هزيمة ساحقة ولم تعد هذه القبيلة توافي الرستميين بالإمدادات ونتيجة المؤامرات التي دبرتها عناصر من البيت الرستمي قتل أبو حاتم يوسف بن محمد فآلت الإمامة إلي اليقظان بن ابي اليقظان محمد، ثم بدأت بوادر نهاية الإمارة الرستمية التي أنهكها الصراع والتناحر القبلي حيث يشير أبو زكريا إلي نهايتها علي يد الفاطميين [4]،الذين ظهروا كقوة نشرت سيطرتها علي جميع

---

[1] ومن هؤلاء الكوفيين والصفريين والمعتزلة والمالكية (ابن الصغير المالكي المصدر نفسه ص 42).

[2] ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 48- 49 النفوس المصدر السابق ج 2 ص 240 الدرجيني مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 8456 ح)الورقة 192.

[3] في بداية حكمه خرج عليه عمه يعقوب بن افلح و بويع بالإمامة و نشبت الحرب بين أنصار الطرفين انتهت بانتصار ابي حاتم و بعد فترة وجيزة الطيب بن خلف الثورة ضد ابي حاتم فحاربه الأخير و انتصر عليه (النفوس، المصدر السابق ص 47-48، الأزهار الرياضية ج 2 ص 271-277.

[4] ومفاد روايته يتلخص إن بنت أبي حاتم و أخاها حرضا أبا عبد الله قائد الجيوش الفاطميين لدخول تاهرت للانتقام من قتلة أبيها و قد استطاع أبو عبد الله احتلال تاهرت سنة 297هـ و قتل بن أبي اليقظان و من ظفر به من بني رستم و استباح أموالهم ثم اتجه إلي المكتبة المعصومة و اخذ منها من كتب الرياضيات والفلسفة والصنائع والفنون واحرقها (السيرة وأخبار الائمة الورقة 36)وجاء أيضا أن احد الاباضيين من النكارية قام بمحاولة لإعادة الإمارة الرستمية بعد أن أسقطها الفاطميون و ذلك بعيد عن تاهرت في منطقة جبال اوارس سنة 916هـ ولكن لم يلبث أن سقط بيد الخليفة الفاطمي المنصور فقتله وسلخ جلده وأحشى تبنا واتخذ قفصا ادخل فيه قردين يلاعبانه(المصدر السابق الورقة 37).

المغرب الإسلامي باكتساح القوي التي كانت تتمثل بالإمارات و الدويلات و يبدو أن إسقاط الفاطميين لإمارة الأغالبة سنة 296هـ/908م مهد الطرق أمامهم للدخول إلي المغرب الأوسط و إحكام السيطرة علي الإمارة الرستمية حيث لم يواجه الفاطميون أية صعوبات عسكرية في إسقاطها و إنهاء دورها السياسي و نفوذها في المنطقة.

العلاقات السياسية

الرستميون و الخلافة العباسية:

وقف العباسيون من الخوارج وقفتهم التي نقرأ عنها تفصيلات غير قليلة في المصادر المشرقية أو المغربية، فقد عرفوا بعدائهم المستحكم للخوارج فكرياً وسياسياً ويذلوا جهوداً كبيرة لمكافحتهم واستئصالهم، وفيما يتعلق بالمشرق فقد تمت علي ما يبدو تصفيتهم من الناحية الفكرية و لم يعد أمام القلة من رجالهم إلا الاختفاء و العمل سراً بعيداً عن أعين السلطة، أو الرحيل إلي المغرب ليكون معقلا لنشاطهم الفكري و السياسي.

وكان الخلاف الفكري والسياسي بين العباسين والخوارج الاباضية عميقاً و متأصلاً وذلك منذ ظهور الحركة الاباضية سواء في المشرق أو في المغرب ولو استعرضنا ما لحق بالاباضين في المغرب الإسلامي من التعسف والاضطهاد علي يد بعض الولاة وملاحقتهم ابتداء من ولاية حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى سنة 127هـ وانتهاءً بولاية محمد بن الاشعث الخزاعي [1]، لأدركنا أبعاد التنكيل بالحركة الاباضية ومن المحتمل إن محاولات هذا الوالي الفاشلة في القضاء علي الاباضيين المغاربة عموماً وعلي عبد الرحمن بن رستم الذي فر إلي احدي المناطق الجبلية من المغرب الأوسط قد

---

[1] ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 144هـ حيث تصدي للاباضين وزعيمهم أبي الخطاب عبد الاعلي بن السمح المعافري في منطقة طرابلس فأوقع فيهم الهزيمة (ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب ج 1 ص 72- 73).

زودت هؤلاء الاباضيين بطاقة جديدة لمقاومة أعدائهم و الانتقام لما حل بهم من البطش و الاضطهاد وأقنعهم بضرورة إنشاء إمارة تكون ملاذا حصينا لهم من أية أخطار يتعرضون لها في المستقبل .

وأغلب الظن أن الهدنة التي عقدت بين والي العباسين روح بن حاتم بن مبيعة بن المهلب بن أبي الصفرة 171/ 179 هـ وبين إمارة عبد الرحمن بن رستم [1]والتي تراعي حسن الجوار، كانت تخدم الخطط التي وضعتها الخلافة العباسية في تعزيز نفوذها في المغرب الادني وبعض مناطق المغرب الاقصي.

ومن الملاحظ أن المصادر الاباضية وغيرها قد اختلفت فيمن طلب الهدنة من الأخر فالرقيق القيرواني يذكر أن روح بن حاتم رغب في موادعة الرستميين أصحاب تاهرت [2] فيما يشير لسان الدين بن الخطيب إلي أن الاباضيين هم الذين رغبوا في موادعته [3] ويطلع علينا بن خلدون برواية مفادها أن قوة الإمارة الرستمية في عهد عبد الرحمن بن رستم و منعتها أو جدت الاقتناع لدي الوالي العباسي بضرورة التهاون و حملته علي مواد عته و مهادنته سنة 171 [4] كما استمر بالسياسة نفسها ابنه و خليفته عبد الوهاب من بعده [5] .

ومهما يكن من أمر، فإن عبد الرحمن بن رستم آثر عدم مناجزة ولاة القيروان العباسين عسكرياً، لكي يتفرغ لمواجهة الأعباء التي واكبت قيام إمارته، وقد ظلت هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن رستم نتيجة للظروف الداخلية التي كانت تواجهها إمارته، ولما اتسم به حكمه من اضطراب وقلاقل بفعل الانشقاقات المبدئية والسياسية بين الاباضيين، وهذا يحتم عليه الإبقاء علي السياسة التي

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 9- 10 و يجعلها الرقيق القيرواني بين الوالي روح بن حاتم و بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (تاريخ افريقية و المغرب ص 173).

[2] تاريخ افريقية و المغرب ص 173.

[3] أعمال الإعلام ق 3 ص 10 .

[4] العبر و ديوان المبتدا و الخبر ج 6 ص 8.

[5] م. ن ج 4 ص 415.

اختطها إزاء الجيوش العباسية والبقاء بعيدا عن المواجهات العسكرية و لكن العباسيون كانوا يغتنمون الفرص لتوجيه ضرباتهم للرستميين حيث درجوا علي إثارة المتاعب لهم واستعداد القوي الأساسية في المغرب عليهم وتهديدهم بالقضاء علي حاضرتهم تاهرت وتجريد الجيوش إليها لدكها و تخريبها بل إن العباسيين كانوا يخططون لتصفية أئمتها وأمرائها، لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من إتصالاتهم بزملائهم في المشرق الإسلامي لتنظيم الثورات وتحريكها ضدهم، فراحوا يكثرون من مراقبتهم بتجنيد الرقباء والجواسيس وبث العيون لتقصي أخبارهم وبخاصة في مواسم الحج[1].

وتبني العباسيون قيادة جميع الحركات المناوئة لحكم الرستميين وغذوها بالمال والرجال وتعهدوا منظميها وقادتها بالتعاون معهم علي إسقاط هذا الحكم ووصفوا لهم الخطط والتدابير الكفيلة بإنجاح حركاتهم، ففي منطقة جبل نفوسه ثار حليف العباسيين "فرج بن نصير " المعروف بنفاث، وهو عالم وفقيه متبحر في الاباضية ويشير الدرجيني إلي أن خروج فرج بن نصر علي الأمير افلح بن عبد الوهاب كان بسبب الإخلال بشرعية الإمامة والاستهانة برسومها [2]والسياسة في استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية [3]

وقد إتخذ فرج بن نصير من قرية قنطرارة منطلقاً له ولأعوانه وأنصاره ضد الإمارة الرستمية، غير أن سياسة افلح بن عبد الوهاب تجاه هؤلاء الثائرين قد

---

[1] يذكر أبو زكريا أن فقهاء الاباضيين برروا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن إحجامه عن أداء فريضة الحج خشية الوقوع بيد العباسيين (وقالوا أيضا بعدم أمان الطريق و هذا شرعا من الشروط الواجبة في الحج (السيرة و أخبار الأئمة الورقة 23 انظر النفوس الأزهار الرياضية ص 140 كما يذكر المؤرخون التفصيلات عن حادثة إلقاء القبض علي الأمير الرستمي أبي اليقظان محمد بن افلح في مكة أثناء ادائة الحج من قبل أعوان الوالي العباسي و إرساله إلي بغداد و إيداعه السجن هناك و هذا يدلل علي مراقبة العباسيين لوفود المغاربة ورصد تحركاتهم في المشرق (ابن الصغير المالكي، سيرة الأئمة 27-29 ، أبو زكريا ، السيرة و أخبار الأئمة الورقة 30- 31 الدرجيني،طبقات الاباضية ج 1 ص 37 النفوس ، مختصر تاريخ الاباضية ص 205 .

[2] طبقات الاباضية الورقة 38.

[3] النفوس، المصدر السابق ص195.

أثمرت في تثبيط عزيمتهم حيث انصرف أكثرهم عن هذه الحركة، ولم يكن أمام فرج بن نصر إلا اللجوء إلي بغداد [1] ويبدو إن هذا الثائر الذي لم يوفق في النيل من سلطات تاهرت بعد تأمره مع الخلافة العباسية، لكنه نجح في إحداث انقسام مذهبي و سياسي بين الاباضيين و تكوين فرقة عرفت "بالنفاثية " ظلت معادية للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عهد الإمارة الرستمية وذلك علي الرغم من وجود ما يشير إلي أن أنصاره قد وهنوا و تفرقوا لدي عودته من بغداد فتاب و رجع عن مسائله التي خالف فيها [2].

ويتضح العداء بين الخلافة العباسية و بني رستم بصوره أكثر جلاءاً بتحريض الحلفاء للمشارقة من الكوفيين وشيوخهم ورؤسائهم للعمل ضد الحكم الرستمي، فقد نجح هؤلاء في تأليب عامة المدينة ضد الأمير يوسف بن محمد بن أبي اليقظان ووضعوا خطة لاغتياله و قاموا بانتفاضة في المدينة بالاشتراك مع أهلها، اضطروا الأمير إلي التسلل من تاهرت مع خاصته وأهله وكان بعض قادة هؤلاء الثائرين و محرضيهم في بغداد قبيل وقوع تلك الأحداث ثم عادوا واشتركوا مع الثائرين مما يؤكد ضلوع العباسيين بالتآمر ضد الرستميين.

ومن الجدير بالتنويه إلي أن قيام امارة الأغالبة في منطقة المغرب الادني سنة 189هـ يمثل مرحلة جديدة في العلاقات السياسية التي تقوم علي العداء بين العباسيين و الرستميين، وذلك أن الأغالبة أول ما اتجهوا إليه هو نزاعهم مع الرستميين في منطقة جبل نفوسَه، اذ يتركز نفوذ الرستميين وممتلكاتهم هناك حيث هددوها فاستغاثت بالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196هـ

---

[1] تذكر المصادر الاباضية أن فرج بن نصر وجد فرصته للإطلاع علي مصادر الذهب الإباضي فدرسها و استوعبها و قيل ان الخليفة أمر بالسماح له بالإطلاع علي المحظور من المصنفات و الكتب في مذهب الخوارج الاباضية (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 31،الرجيني،طبقات الاباضية ج 1 ص37

[2] د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 125، لكنه يدلل علي تشككه بتوبة نفاث بوجود كثير ممن اعتنقوا آراءه في أواخر القرن الخامس الهجري.

فزحف إليها بحشوده الهائلة من رجال نفوسه مما اضطر الأغالبة علي قبول الهدنة معه[1].

وعلي الرغم من ذلك فقد استمر الأغالبة يناصبون العداء للرستميين نيابة عن العباسيين بيد إن الأغالبة لما عجزوا عن تحقيق أهدافهم في هذا الجانب عمدوا إلي إنشاء مدينة "العباسية " في جوار مدينه تاهرت و قد استهدفوا من إنشائها تحويل الأنظار عن حاضرة الرستميين التي كانت تجتذب عددا كبيرا من المغاربة و المشارقة من السياسيين و أصحاب الرأي و من العلماء و الفقهاء و التجار و أصحاب المهن و الصنائع و لكن الرستميين وثبوا علي مدينه العباسية فأجلوا سكانها وأحرقوها [2].

---

[1] النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الاباضية ج 2 ص 145.

[2] ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص 429 و الظاهر أن الصراع بين الأغالبة و الرستميين الذي استمر حتى موقعة (نصر مانو) سنة 283 هـ قد استنفذ قواهما و مهد لسقوطها علي أيدي الفاطميين سنة 297هـ/ 909 م.

علاقات الرستميين بالأدارسة:

تقوم العلاقة بين الرستميين والأدارسة علي العداء المذهبي التقليدي و ذلك علي الرغم من موقفهم الموحد إزاء الخلافة العباسية الذي كان يتسم بالعداء كما أن غالبية القبائل التي انضمت إلي الأدارسة وهي "زناتة و لماية و لواتة و وسدراتة و نفزة " كانت تدين بالمبدأ الإباضي [1] فكان علي الرستميين أن يقلقوا بشأن هذه القبائل التي كان من المفروض أن تستظل تحت لواء الإمارة الرستمية الاباضية لا أن تنضوي تحت نفوذ الأدارسة الذين واصلوا سياستهم التوسعية بمحاولة ضم بطون هذه القبائل في منطقة تلمسان وشلف إلي منطقة نفوذهم و العمل علي استئصال الأفكار الاباضية المنتشرة هناك.

ومن المرجح أن طبيعة الصراع بين الرستميين والأدارسة كان يحدده موقف القبائل من طرفي النزاع، لذلك اتخذ كلا الطرفين محاولات التوسع في مواطن هذه القبائل وكسب السيطرة عليها. وبمرور الزمن، فان الرستميين لم يقابلوا الأدارسة بالرد علي مؤامراتهم ولم يكن بوسعهم مجاراة الأدارسة في تدبير المكائد وإحداث الشقاق، وعزفوا نهائياً عن محاولة التحرش بهم علي الرغم مما آلت إليه إمارة الأدارسة من التمزق السياسي والضعف ويبدو أن سياسة الرستميين بعدم مناجزة الأدارسة والرد عليهم بالمثل خلقت ما يمكننا تسميته بالعجز الرستمي أمام تدخلات الأدارسة في الشئون الداخلية لإمارة الرستميين وتحريض الخارجين و الثوار عليها وتزويدهم بما يتطلب لإسقاط نظام الخوارج الاباضية في تاهرت مما أسفر عنه انتهاء الصراع بين الطرفين بتغلب الأدارسة و تقلص نفوذ الرستميين واستكانتهم[2].

---

[1] النفوسي، المصدر السابق ص 145.

[2] د. محمود إسماعيل: المرجع السابق ص 149.

العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس:

نهج الرستميون في علاقاتهم مع أمويي الأندلس سياسة ودية ربما أوجبتها الضرورات السياسية بهدف توطيد العلاقات بينهما، إذ يتعرض الطرفان لعداء كل من الأغالبة والأدارسة وذلك علي الرغم من خلافاتهما المذهبية والتاريخية وقد بلغت العلاقات بين تاهرت وقرطبة إلي درجة التحالف السياسي وتبادل السفارات و الهدايا، كما قامت العلاقات تجارية فكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين، واستقبلت حاضرة الرستميين تاهرت كثيرا من أهل الأندلس حتى إنهم أصبحوا جالية أندلسية كبيرة [1].

ومن الجدير بالذكر، أنه لما كان الأمويون في الأندلس يتطلعون إلي تسقط أخبار المشرق الإسلامي، وخصوصاً بلاد الشام أرض آبائهم وموطن تراثهم ومجدهم والاتصال به ثقافياً وحضارياً واقتصادياً فلابد أن يحافظوا علي منفذ المغرب الأوسط، لأن المغربيين الأدنى والأقصى كانت تقوم فيه علي التوالي أمارتا الأغالبة والأدارسة المعاديتان مبدئياً ومذهبياً لهم فالأولي موالية للعباسيين والثانية ترفع شعار العلويين، وجميع هؤلاء أعداء تقليديون لبني أمية، والظاهر أن العلاقات بين أمويي قرطبة و أصحاب تاهرت قد توطدت بعد تأسيس مدينة تاهرت وذلك باستعانة عبد الرحمن بن رستم بالمهندسين والمعماريين ومن لهم خبرة بإنشاء المدن وتعميرها من الاندلسيين، إذ تعذرت علاقاتهما واكتسبت رسوخاً ومودة حتى أن صاحب تاهرت أمر بتسمية احدي أبواب مدينته باسم " باب الأندلس " [2].

---

[1] ومن العلماء الذين اختلفوا إلي تاهرت،عمران بن مروان الاندلسي ومسعود الاندلسي اللذين أصبحا عضوي مجلس الشورى في عهد عبد الرحمن بن رستم (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة،الورقة 104 ثم انظر :

marcais,G . la berberie musulane Et l orient au Mogen age (Paris, 1964)P104

[2] أبو عبيد البكرى، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66.

أما العلاقات العدائية التي سادت بين الطرفين فلم تكن إلا لفترة قصيرة حيث زالت الجفوة بعد وفاة الحكم المستنصر سنة 206هـ/821 م [1] وعادت العلاقات التقليدية بينهما فوصلت البعوث إلي "دار المغرب" و هي تاهرت كما اتخذ بعض الأمراء الاندلسيين الوزراء والحجاب والقواد من البيت الرستمي و بظهور الفاطميين علي المسرح السياسي في بلاد المغرب تعرضت القوي السياسية جميعها إلي التهديد الفاطمي سواء أكانت في المغرب أو في الأندلس مما استوجب القيام بعمل مشترك بين تاهرت وقرطبة لاتقاء هذا الخطر الذي بات وشيك الوقوع لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد سقطت إمارة الرستميين سنه 297هـ/909 م بيد الفاطميين ولم يقم حكام قرطبة لنجدتهم.

---

[1] بدأ انهيار العلاقات و ترديها منذ نزل الأمير الحكم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالحكم المستنصر إقليم الجزيرة الخضراء بالأندلس حيث كان يعج بالسكان و اغلبهم من الاباضيين فقتل أكثرهم (ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس ص 71- 72).

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصي

1- تمهيد

2- قيام إمارة الأدارسة

3- مدينة فاس حاضرة الأدارسة

4- العلاقات السياسية

5- الأدارسة وبنو العباس

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصي

(172-375هـ / 788-985م)

تمهيد:

الأدارسة، نسبة إلي إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي يرجع نسبة إلي علي بن أبي طالب (رض) وكان قد فر من الجيش العباسي علي اثر هزيمته في معركة "فخ" المنطقة الواقعة بين مكة والمدنية سنه 169هـ ونفذ إلي المغرب الإسلامي وهناك أقام مع أعوانه و أنصاره إمارة " الأدارسة" التي لعبت دورا مهما في تاريخ المنطقة أما أخوه يحيي بن عبد الله فقد توجه إلي بلاد الديم وقضي هناك ويشير البكرى إلي أن إدريس بن عبد الله افلت من يد العباسيين بصحبة مولاه راشد فألبسه دراعة وعمامة وصيره كالغلام يخدمه [1] وعن طريق مصر استطاع إدريس بن عبد الله ومولاه راشد الوصول إلي القيروان ثم إلي مدينه تلمسان ثم ارتحل نحو بلاد طنجة ونزلا في مدينة "وليلي"[2] سنة 172، واتخذت هذه المدينة

---

[1] المغرب في ذكر بلاد أفريقيا و المغرب ص 118 (و هناك روايتان في طريقة وصول إدريس بن عبد الله إلي المغرب الاقصي تتلخص الأولي في أن إدريس و مولاه راشد مرا بمصر بدار مشيده فجلسا علي باب الدار فرأهما صاحب الدار و عرف أنهما من الحجاز فقال له راشد: هذا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب خرج من موضعه فسلم من القتل و قد جئت به أريد بلاد المغرب لعله بأمن فيه و يعجز من يطالبه فادخلهما منزله وسترهما حتى هيأ لهما خروج رفقة إلي افريقية فاكتري لهما جملا وزودهما وكساهما فدخل إدريس ومولاه راشد المغرب فأقاما بين ظهرانيهم (المصدر السابق ص 118-119) أما الرواية الثانية فيذكرها ابن عذاري علي أنهما نزلا و كان متولي بريدها حينذاك " واضح المسكين " و كان يميل للعلويين و ينتصر لهم في الباطن و قد بلغه وصول إدريس إلي مصر فساعده علي الفرار إلي المغرب (البيان المغرب ج 1 ص 63، وربما تكون هذه الرواية صحيحة واقرب إلي الحقيقية بدليل إن الخليفة الهادي بن المهدي العباسي قتل واضحا بما بلغه الدور الذي قام به.

[2] وهي مدينه فولوبيلس **colubillis** الرومانية و تقع علي سفح جبل زرهون و كانت مركزا و مستقرا لقبيلة اوربة التي ناحرت إدريس بن عبد الله.

قاعدة ومنطلقاً لإدريس بن عبد الله لأعوانه من العلويين وأنصاره من قبائل أوربة ومغيلة وصدنية وقبائل زناته وهي زواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة حيث عبأ منهم جيشاً كثيفاً أعده لغزو بلاد تامسنا ومناطقها التي كان سكانها من النصارى واليهود والمجوس والوثنين فأخضعها ونشر الإسلام فيها، ثم لم يلبث أن غزا في السنة التالية حصون فندلاوة و مديونة و بهلوله و قلاع غاثة التي كانت تتحصن بها هذه القبائل واستولي عليها ثم عاد لمهاجمة مدينة تلمسان وأخضع القبائل الضاربة حولها وهي مغراوة و بني يفرن[1].

ومن المفيد أن نذكر انه لم تعترض إدريس بن عبد الله صعوبات في إقناع قبائل المغرب لدعوته اذ كانوا ينزعون بطبيعتهم إلي الاستغلال والتخلص من حكم الولاة العباسيين ثم أن الخوارج الذين سبقوا العلويين إلي هذه البلاد مهدوا الطريق أمام دعوتهم فكأن المغرب قد حرثها الخوارج للعلويين وحين قدم دعاتهم كان سلطان الخوارج قد زال فانتفعوا بغرسهم [2]. والظاهر أن العلويين قد زادوا علي دعوة الخوارج ومعارضتهم بقولهم: إنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة لأنهم آل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وقد ورثوا علم النبوة فاكتسبوا عطفهم، ومعروف عن هذه القبائل أنهم كانوا موقرين لرجال الدين ومعظمين للأولياءالصالحين.

---

[1] ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ والخبر ج 4 ص 25.

[2] د. حسن احمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 408.

قيام إمارة الأدارسة:

لقد نجحت حركة إدريس بن عبد الله بإقامة أمارته بفضل اعتماده سياسية الغزو المسلح وتنمية للمبادئ التي كانت قبائل المغرب تري فيها خير دليل لإقامة كيان مستقل لهم عن النفوذ العباسي. والحق أن الأدارسة كانوا يعبرون تعبيراً صحيحاً عن شعور هذه القبائل رغبتهم الحقيقية في الاستقلال ولا غرور إن ينهض الادراسة بأعباء قيام إمارة تكون القبائل المغربية وهم أهل البلاد الأصليين مادتها الأساسية حيث استمرت هذه الإمارة حتى سنة 375 هـو ذلك علي الرغم من التحديات التي كانت تتعرض لها من الفاطميين في المغرب ومن أمويين الأندلس وقد أهلها ذلك علي ما يبدوا لتعمر أطول فترة من باقي إمارات المغرب الإسلامي.

وكان لقيام إمارة الأدارسة صدي عميق الأثر في جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة بعد إن توطدت وتدعمت أسسها، اذ كان أعدائها يتدبرون الإيقاع بها وينسقون الخطط لإسقاطها، وأدرك العباسيون انه لم يعد بالامكان الاستمرار علي سياسة القوة التي اعتمدوها للقضاء علي حركة الأدارسة وإماراتهم بسبب تهديدهم لجميع افريقية ومصر و اغاراتهم علي أملاك العباسيين الواقعة إلي الشرق من أراضيهم[1] فلم يكن إمام العباسيين إلا اللجوء إلي وضع الخطط الكفيلة بإيقاف زحف الأدارسة إذ عملوا إلي خلق كيان سياسي موالي لهم تمثل بإمارة الأغالبة لتكون حاجز بين أملاكهم وبين إمارة الأدارسة [2].

أما الإجراء الآخر الذي اتخذه العباسيون فيتمثل بمحاولة القضاء علي إدريس بن عبد الله و اغتياله و إخماد الحركة الانفصالية و رأسها إمارة الأدارسة في بلاد

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 6 ص 43-45.

[2] عهد الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي بولاية توفي لتكون نواة لإمارة تفيد توسع الأدارسة و تمنع تغلغل نفوذهم في بلاد المغرب و تمنعهم من الاستحواذ علي أملاك العباسيين التي كانت ندر موارد غير قليلة لهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 56).

المغرب الاقصي فدس له هارون الرشيد من قتله بالسم سنة 177هـ [1] غير إن مقتل إدريس بن عبد الله لم يؤثر في مسيرة الحركة الانفصالية ولم يقضي علي إمارة الأدارسة فقد حافظ هؤلاء علي كيان إمارتهم ما يقارب العشر سنوات حتى تسلم إدريس الثاني الذي لم يكن قد ولد بعد [2]، دفة الحكم فبايعته القبائل والتفت حوله .

مدينه فاس حاضرة الأدارسة:

يمكن القول، أن إدريس بن إدريس (الثاني) هو المؤسس الحقيقي لإمارة الأدارسة فقد بايعته قبائل زناته و أوربة و صنهاجة و غمارة، فساعده ذلك علي استكمال قوته العسكرية بتعبئة جيشه و إعداده و كذلك علي توطيد حكمه و الظاهر أن قوه بلاده وصنعتها واستتاب الأمن فيها، اقنع الكثيرين من العناصر والأفراد من المغاربة والمشارقة للنزوح إليه والاستقرار في بلاده و أخذت مدينه وليلي، تستقبل الوافدين من جميع أنحاء المغرب و المشرق و الأندلس فأنشأوا الروابط بينهم وبنوا الأسواق والميادين، وأصبح لهم إحياء تعرف بأسمائهم ولكن

---

[1] استشار هارون الرشيد احد مستشاريه بأمر إدريس فأشار عليه إن يبعث إلي إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة فوقع اختياره علي سليمان بن جرير الذي كان يعرف بالشماخ وأمره بالانطلاق إلي بلاد المغرب فذهب و هو يتظاهر بالطب حتى وصل إلي دليلي فاتصل فانس إليه و اتخذه صاحبا و نديما فكان إدريس في هذا البلد يحي إلي مجالسة المشارفة و محادثتهم و اخذ الشماخ يترصد لاغتيال إدريس بالسم فلما واتته الفرصة بغياب مولاه راشد أعطاه قارورة طيب يتطيب بها و كانت مسمومة فلما شمها أصابه السم و توفي علي اثر ذلك و هرب الشماخ فطلبه راشد حتى أدركه بوادي ملوية فضربه بسيفه فقطع يده ولكن الشماخ استطاع عبور الوادي ثم واصل سيرة إلي بغداد فولاه الخليفة علي بريد مصر (انظر:السلاوي الاستقصا ج 1 ص 159 البكري المغرب ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج 1 ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج1 ص 299 ابن الأثير الكامل ج 5 ص 90) و قيل سمه بوضع ذر ور سموم في سن له موجوعة و قيل سمه في دلا عه (و هو فاكهة الرقي في العراق).

[2] توفي إدريس بن عبد الله دون ولد و لكنه ترك جارية له اسمها كنزة حاملاً فانتظر أعوانه و أنصاره حتى وصفت الجارية غلاماً سمي ادريساً فبايعته جميع القبائل من زناته وأوربة وصفهاجة وغمازة (البكري المصدر نفوسة ص 22 الجزنائي زهرة الآسي في بناء مدينة فاس ص 19)

بمرور الزمن أصبحت المدينة تضيق بهم فعزم علي الانتقال إلـــي مدينـــه جديـــدة يؤسسها ويسكنها هو وخاصته من قومه [1]. وفي 192 هـ شرع ببنـــاء مدينـــة فاس [2]، ولما أتمها أمر الناس بالانتقال إليها وأشار عليهم ببناء الدور والمنـــازل وغرس الغروس والأشجار ثم أقام سورها وانزل الوافدين القيروان بالعدوة الغربية وسميت" بعدوة القرويين " وقد أصبح لهاتين العدو تين شأن كبيـــر فـــي تـــاريخ المدينة السياسي الاجتماعي، وتنفتح في سور عدوة الاندلسيين أبواب عدة أهمها باب القبلة وباب الكنيسة أو الخوخة وباب أبي سيفين وباب جراوة وباب الشيبوبة وباب المخفية أما أبواب سور عدوه القرويين فمنها باب افريقية وباب القلعة وباب الحديد وباب الفرج أو السلسلة وباب الفصيل أو النبقة [3].

ويقدم المستشرق المتأسبن ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة مدينة فـــاس وتقوم أساساً علي أن إدريس بن عبد الله، أسس المدينة سنة 172 هـ في الموقع التي تقع عليه عدوة الأندلس وان إدريس بن إدريس أسس عدوة القرويين ســـنه 192 هـ في غرب مدينة أبيه وعلي الضفة اليسري من وادي فاس و في الموضع المعروف " بدارالقيطون "[4] ومن المرجح أن تكون الآراء التي جاء بها بروفنسال في هذا الجانب صحيحة لأنه ليس من المعقول أن ينتظر الأدارسة 20 سنة لكـــي يؤسسوا لهم مدينة تكون مقراً ومركزاً لإمارتهم ثم إن قيـــام الـــدول والإمـــارات المستقلة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري لابد أن يستتبعه مباشرة

---

[1] يقدر بن خلدون محمد وفد إلي بلاد الادارسة من عرب الجزيرة بخمسمائة فارس مـــن العنســـيين و الازد و الخزرج و مدلج و بني يحصب حتى أصبح لهم نفوذ في الإمارة فاستوزر منهم إدريس عمير بن مصعب الازدي الملقب بالملجوم (العبر ج 4 ص 26 29، انظر أيضا الجزنائي المصدر السابق ص 13)

[2] يقال أن إدريس ابتدأ بحفر الأساس بفأس ذهبية فسميت المدينة فاسا و قيل انه وجد في الحفير فاس كبيرمن الذهب، كما قيل أن مدينه أثرية قديمة كانت تقوم في هذا الموضع كان اسمها "ســـاف" فســـميت المدينة علي هذا الاسم مقلوبا (أبي زرع الآنيس المطرب، الجز ناني زهرة الأس، بروفنسال الإسلام في المغرب و الأندلس).

[3] الجزنائي، المصدر السابق ص 19 – 20.

[4] ونجد استعراضا للأدلة المادية و التاريخية التي يسوقها بروفنسال لإثبات نظريتـــه (الإســـلام فـــي المغرب والأندلس ص 29 – 30)

قيام مدن جديدة تكون مراكز سياسية وعسكرية وثقافية لها، أي اقتران قيام هذه الكيانات بتأسيس عواصم وحواجز لها، فلاشك في أن إدريس بن عبد الله اسس مدينة فاس إقتداء ببني مدرار في سجلماسة و بالرستميين في تاهرت.

ونقرأ عن الجغرافيين المسلمين تفصيلات مهمة عن مدينه فاس ابتداءً من القرن الثالث الهجري حتى الخامس فيقول اليعقوبي عنها: أنها " مدينة جميلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان "[1]. ويصفها البكري " أنها مدينتان مقترنتان و بينهما نهر مطرد و عدة القرويين غربي عدوة الاندلسيين"[2] أما الإدريسي فيذكر "أنها مدينتين بينهما نهر و المدينة الشمالية تسمي القرويين و تسمي الجنوبية الأندلس"[3]

ومما يلفت الانتباه في عهد إدريس بن إدريس تآمر بعض مشايخ القبائل المغربية المنظمة إليه وضده ومنهم اسحق بن محمود الاوربي كبير قبيلة أوربة الذي اتصل بالأغالبة بغرض الإطاحة به[4]، وبهلول بن عبد الواحد المظفر بالذي كان من معتمدي إدريس و أحد أركان إمارته حيث تآمر هو الآخر مع الأغالبة حتى"انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية"[5] مما اضطر إدريس في نهاية المطاف إلى طلب عقد صلح مع إبراهيم بن الأغلب ليبادر إلى تفويت الفرصة على متآمريه.

لقد أقام إدريس بن إدريس فى مدينة فاس ولم يغادرها خشية ما تدبره بعض العناصر من مؤامرات ربما يروح هو ضحيتها في مدينة وليلي، ولكنه توفي سنة 213هـ[6] مخلفا ابنه محمد الذي أشرك معه أخوته في الحكم فولاهم في إمارته

---

[1] كتاب البلدان ص 357.

[2] البكرى، المصدر السابق ص115.

[3] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص 75-76.

[4] حيث سعي إلى اغتياله سنة 192هـ(البكرى المصدر السابق ص23).

[5] ابن خلدون العبر ج4 ص27.

[6] جاء في المصادر أن سبب وفاته تناوله لفاكهة العنب فغص بحبة منه فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات، وقيل أنه مات مسموما(البكرى المصدر السابق ص123-124، ابن عذارى المصدر السابق ج1 ص211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202).

التي قسمها إلى أعمال [1] واختص هو بحاضرته فاس التي أصبحت مركزاً سياسياً احتل شهرة مرموقة بجميع أنحاء العالم الإسلامي.

واتسم عهد محمد بن إدريس بسيادة الأمن والاستقرار السياسي وبتوطد العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الإسلامي سوي ما تشير إليها المصادر من الخلافات الداخلية بين الأخوة حول الاستئثار بالحكم والمتمردات التي استطاع القضاء عليها بالقوة [2].

وخلف محمد بن إدريس بعد وفاته سنة 211 هـ خلفاء كان أكثرهم شهرة يحيي بن محمد بن إدريس الذي شهدت فاس في عهده ازدهارا واضحا في العمران حيث" بنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار ومهدت الأرباض ورحل ليها الناس من المدن القاصية[3]، أما في عهد علي بن عمر بن إدريس فقد تعرض الأدارسة الى خطر الزوال على يد الخوارج الصفرية الذي كان يقود جيشهم عبد الرازق الفهري ،حيث استطاع هذا الأخير الدخول الى مدينة فاس والاستيلاء على عدوة الأندلسيين فما كان من أهل عدوة القرويين إلا أن يولوا على أنفسهم يحي بن القاسم الذي عرف "بالعدام" فقد تمكن من صد هجوم الخوارج وإخراجهم من عدوة الأندلسيين[4].

---

[1] خلف إدريس بن إدريس من الولد اثن عشر وهم: محمد و أحمد و عبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيي وعبد الله والقاسم وداود وعمر(البكري المصدر السابق ص 124، ابن عذارى المصدر السابق ص 211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202)وقد ولى أخاه القاسم بلاد صنهاجة الهبط و غمارة وولى داوود بلاد هوارة وتسول وتازي و قبائل مكناسة وغياثة وأخاه عبد الله أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى وأخاه يحى ولاه أصيل والعرائش ولاد زواغة وولى أخاه عيسى بلاد شالة وسلا وازمور وتامسنا وبرغواطة، أما احمد فولاه مدينة مكناسة وتادلا و ولى أخاه حمزة مدينة وليلي وأعمالها وأبقى أخوته الآخرين بكفالة جدته كنزة لصغر سنهم.

[2] منها حركة أخيه عيسى في منطقة سالة وامتناع أخيه القاسم عن محاربة أخيه عيسى وإخماد حركته فاضطر محمد بن إدريس إلى توجيه أخيه عمر صاح بمناطق صنهاجة وغمارة للقضاء على عيسى والقاسم حيث أمده بجيش استطاع به عمر أن يهزم أخويه ويتولى ولايتهما(ابن خلدون المصدر السابق ص 28، السلاوي، الاستقصا ج1 ص 173).

[3] ابن خلدون المصدر السابق ص 29.

[4] م.ن. ص 31.

غير أن أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً على حد قول بن خلدون هو يحي بن إدري بن عمر بن إدريس الذي كان فقيهاً عالماً بالحديث " ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة " [1]. ولكن في عهد هذا الأمير بدأت إمارة الأدارسة تتعرض للخطر الفاطمي ففي سنة 305هـ، إلتقى جيش الأدارسة مع جيوش الفاطميين التي كان يقودها مصالة بن حبوس الكتامي، حيث هزم الأدارسة وعاد يحيي بن إدريس الى عاصمته فاس مخذولا فحاصره الجيش الفاطمي فلم يكن أمام يحيي بن إدريس إلا طلب الصلح على مال يؤديه للفاطميين ومبايعتهم، فجرد من أعماله وأمواله وتركت له فاس ليكون أميراً عليها.

ولم يشأ الفاطميون أن يتركوا الأدارسة، فقد أقاموا على فاس ريحان الكتامي وهو من كبار قادتهم غير أن عهده لم يدم طويلا فبعد ثلاثة أشهر من ولايته ثار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف "بالحجام" واستولى عليها وحكمها عامين، ولكن الفاطميين راحوا يدبرون نهاية للأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلائهم عن فاس ونفيهم إلى مدينة حجر النسر" الحجر" [2] والاستيلاء على عدوة الاندلسيين، وبذلك سقطت إمارة الأدارسة بحلول سنة 375هـ

---

[1] م.ن. ص 32.

[2] وتسمى قلعة النسر وهي الملجأ الذي اعتصم به الأدارسة في شمال المغرب الأقصى بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس و تقع على جبل شامخ الذري أرضه خصيبة كثيرة الخيرات وعى مقربة من أحواز سبتة ويجعلها البعض بين تطوان وسفثاون (البكري المغرب ص126) وقال ابن عذاري:"أجلى موسى بن أبى العافية بن إدريس اجمعين عن مواضعهم وصاروا في مدينة حجر النسر مقهورين وحجر النسر حصن مانع بناه إبراهيم بن القاسم بن أدريس وعزم موسى على محاصرتهم في هذا الحصن واستاصالهم فأخذ عليه في ذلك أكابر المغرب فقالوا له:"لقد اجليتهم أتريد ان تقتل بني إدريس أجمعين وانت رجل من البربر!!"فأعرض عن ذلك ولاذ عنهم بعسكره"(البيان المغرب ج1 ص 214).

العلاقـــات السياسيـــة

الأدارسة وبنـو العبـاس:

تتسم العلاقات بين الأدارسة والعباسيين بطابع عدائي منذ أن سعى إدريس بـــن عبد الله إلى تكوين إمارة مستقلة عن نفوذ ولاة العباسيين في المغرب، وإذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه العلاقات وجذورها التاريخية فعلينا أن نقرأ علاقات الأدارســة مع الأغالبة وهم خلفاء بني العباس حيث سخر هؤلاء لمقاومة نفــوذ الأدارســة والحد من توسعهم وحسر أخطارهم وتهديدهم لممتلكات الدولة العباسية ومواليهم وأنصارهم.

وقد أدرك هارون الرشيد، بعد أن تناهي إليه دخول اغلب قبائل المغــرب فــي طاعة إدريس بن عبد الله و تصميمه علي إقامة إمارة مستقلة عن النفوذ العباسي، انه لا طاقة لجيوش العباسيين علي الوصول إلي منطقة السوسي التي راجت فيها دعوة الأدارسة، فإمارة الأدارسة أصبحت حقيقة واقعة في هذه المنطقــة و علــي العباسيين أن يعالجوا أمرها بما يتوافر لديهم من إمكانيات سياسية أو عسكرية و علي الرغم من نجاح الخطة التي وضعها هارون الرشيد بتصفية إدريس بن عبــد الله لكن العباسيون عجزوا عن الإطاحة بالا دارسة في عهد إدريس بن إدريــس، فأوكل العباسيون هذه المهمة إلي الأغالبة ليقومــوا بهــذا الــدور و الظــاهر أن الأغالبة كانوا لا يمتلكون المقدرة والقوة علي مجابهة أعــداء حلفــائهم فطفقــوا يستميلون بعض القبائل المغربية و يكثرون من الاتصال بزعمائهم لإبعادهم عــن الأدارسة أو استعدائهم عليهم، كما حاولوا التدخل في الشئون الداخلية الأدارســة وذلك بتسخير صنعائهم للثورة ضدهم في مدينه فاس، ولكن علي ما يبدو أن جميع هذه المحاولات قد باءت بالفشل و استمر قيام إمارة الأدارسة التي كان العباسيون ينظرون إليها علي إنها خطر يهدد بالتهام المغرب الإسلامي ومصر.

ثم أن الأغالبة وبمرور الزمن لم يكن في صالحهم أن يتأصــل عــداؤهم مــع الأدارسة وان تتخذ علاقاتهم السياسية طابعا عدائيا يؤدي إلــي الصــراع بسـبب مصالحهم المشتركة لذلك فليس في وسعهم إلا قبول دعوة الأدارسة بعقد الصــلح

بين الطرفين [1]وأن يكف كل متهما عن الأخر من ناحيته [2] فيشير ابن الخطيب إلي أن إدريس بن عبد الله بن الحسن كتب إلي إبراهيم بن الأغلب بن سالم " يستكفيه عن ناحيته و يذكره بقرابته من رسول الله (ص) فأجابه عن كتابه ووادعه ولم تجر بينهما حرب إلا ما ذكر عنه " [3]

ومن المرجح، أن الأغالبة كانوا يدركون أن الأدارسة قد أسهموا إسهاما فعالا في خدمة العالم الإسلامي، من حيث أنهم ثبتوا القبائل المغربية علي الإسلام بل هم الرواد والممهدون الحقيقيون لظهور هذه القبائل في المجال الإسلامي ظهوراً واضحاً[4] فلا غرو أن يستجيب الأدارسة للظروف والأحوال التي يمر بها الغرب الإسلامي فيقتنعوا أن النزاع المسلح وما يخلفه من علاقات عدائية وبخاصة مع الأدارسة لا يخدم مصالحهم وكذلك لا يساعد علي استقرار المنطقة وأمنها لذلك تبدو أهمية الإسلام والموادعة وتحاشي الصدام في نظر الأغالبة تحتل الأولوية في سياساتهم والأغالبة بحكم تحالفهم مع العباسيين من جهة فإنهم يسعون إلي التوفيق بين مصالح الإمارات والدول والقوي الإسلامية في المغرب وبين مطالب الخلافة العباسية من جهة أخري كما إنهم أحيانا يرون في بعض الإجراءات التي كان يتخذها الخليفة أو توجيهاته إليهم خروجا عن الواقع السياسي التي تعيشه المنطقة لا يسعهم الامتثال له، وقد ظهر ذلك واضحا من كتاب الخليفة العباسي المأمون إلي الأمير زيادة الله بن إبراهيم 223/201 هـ يحثه فيه علي الدعاء إلي عبدالله بن طاهر علي منابر افريقية، فغضب الأمير الاغلبي وهدد الخليفة بخروجه عن طاعة العباسيين و انضمامه إلي الأدارسة [5].

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ص 27.

[2] ابن الأثير ، الكامل ج 6 ص 56.

[3] أعمال الإعلام ق 3 ص 14- 15.

[4] د. حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 412.

[5] لما استمر العباسيون يثقلون الأغالبة بمطالبهم، أرسل زيادة الله بن إبراهيم، كيسا يحتوي علي ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس هذا يشير إلي أن الأدارسة يشكلون إمارة قوية في المنطقة وأن الأمير الاغلبي كان تهديد الخليفة بانضمام إمارته إلي صف أعداء الخلافة الأقوياء (ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 422؛ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 17).

ومعروف انه بظهور الأدارسة، ترسخت الأفكار الإسلامية بين قبائل المغرب واستطاع الأدارسة بمساعدتهم في المضي بنشر الإسلام في غرب افريقية وفي حوض السنغال، وهذه الظاهرة كانت تستلفت انتباه العباسيين، مما يترتب عليهم اتخاذ تدابير في المجالات السياسية والعسكرية لغرض التعتيم علي نشاط الأدارسة في هذا المجال غير أن جميع هذه التدابير والخطط قد فشلت نظرا لتنائي بلاد المغرب عن المشرق الإسلامي وعجز جيوشهم عن الوصول إليها، فضلاً عن قوة إمارة الأدارسة وكثرة جيوشها، وقد جاء علي لسان الخليفة هارون الرشيد وهو يستشير رجاله في أمر إدريس بن عبدالله الذي اشتهر أمره واسمه فقال: "... وقد هالني أمره " [1] مما يشير إلي أن إمارة الأدارسة أصبحت قوية منيعة.

ومهما يكن من أمر فإن إمارة الأدارسة لم تصمد أمام مكائد الولاة العباسيين وحلفائهم من الأغالبة، فحسب، بل أنها كانت تذب عن نفسها عدوان القوي الأخرى في المنطقة أيضا، وتثبت أقدامها وتتحدي الصعاب التي كانت تواجهها، مما جعلها تحكم أكثر من قرن (172-375هـ) وامتد نفوذها من السوس الأقصى إلي وهران، وقد عول الأدارسة علي ذلك بتجنيد القبائل وتعبئتها ضد أعدائهم، وهكذا لم يرضخ الأدارسة إلي التهديدات التي كان يطلقها أعداؤهم.

ونعتقد، أن الأدارسة، لم يكن يتح لهم مثل هذا الموقف لو لم يحظوا بالتأييد من أغلب قبائل المغرب القوية و منها أوربة وفعلية و صدنية وقبائل زناتة وهي زواوة ولواته وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة وكذلك مما زاد في نفوذ الأدارسة أن الحركة الانفصالية عن النفوذ العباسي في بلاد المغرب اقترنت بظهورهم فقد حمل لواءها مؤسسو إماراتهم الأول و لكن من المفيد أن نذكر أن الموادعة التي تمت بين الأدارسة والفاطميين و أن الأدارسة حكموا باسم الفاطميين[2] ووقوع الأدارسة بين خصميه متنازعين الفاطميون في المغرب والأمويون في الأندلس أضعف الأدارسة وأفقد إمارتهم قوتها ونفوذها وسبب لها كثيرا من المتاعب مما أفضي إلي سقوطها وزوالها.

---

[1] ابن أبي زرع، الآنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينه فاس ص 203؛ البكري، المصدر السابق ص 119 ابن عذاري، المصدر السابق ص 83، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 192- 193؛د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 471 نقلا عن
leve- Provencal, Extrandes Historien arabes P 18

[2] السلاوي، الاستقصا ج 1 ص 80 – 86 ابن عذاري، المصدر السابق ج 1 ص 212 – 213.

الفصل السابع

إمـــارة الأغالبة في المغرب الادنـي

1- فتح جزيرة صقلية

2- القيروان عاصمة بني الأغلب

3- العلاقات السياسية

الأمراء الأغالبة والخلفاء العباسيين

الفصل السابع

إمـــارة الأغالبـة في المغرب الادنـي

(184 – 296هـ / 800 – 908م)

ينتسب الأغالبة إلي إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، مـــن قـــواد جـــيش الخليفة العباسي هارون الرشيد. حيث عهد إليه هذا الأخير بإقامة إمارة يتزعمهـــا تتمتع بشبه استقلال ذاتي تستظل بالخلافة وتكـــون قاعـــدة سياســـية وعســـكرية للوقوف ضد القوي والحركات المناوئة للخلافة ولاســـتقطاب القبائـــل والعناصـــر المستقلة والمعتدلة والمترددة وقد امتنع الخليفة هارون الرشيد بهذا الإجراء نتيجة لاستمرار الحركات المناوئة والمعادية للخلافة، وخشـــية مـــن انفصـــال المغـــرب الإسلامي عن النفوذ العباسي الذي كان ينظر إليه الخليفة بأنه بات وشيكاً، بل كان واقعاً ملموساً في ظروف هذه البلاد البعيدة بعد قيام إمارة الأدارســـة التي أصبحت العدو التقليدي للنفوذ العباسي.

وقد تبين، أن اشتراط الخلافة لقيام إمارة الأغالبة في ولاية أفريقية المتمثلة في جهات المغرب الادني يقوم علي دعامتين أساسيتين، أولاهما، الضمانات الماليـــة واستمرا ر تدفق الإيرادات علي بيت مال الخلافة في بغداد سواء تلـــك الإعانـــات التي كان يستحصلها ولاة أفريقية من مصر أو تلك التـــي فرضـــت فيمـــا بعـــد[1] وثانيهما يتمثل في منع الأدارسة من سياسة التوسع أو الحد منها في الأقل وكـــذلك دفع الأغالبة إلي التدخل في شئون الأدارسة وإفشال دعواتهم بما يـــراه العباســـيون، فصل بلاد المغرب عن العالم الإسلامي أو سعيهم في توحيد المغرب والمشرق تحت قيادتهم.

---

[1] كانت ولاية مصر ترسل إلي أفريقية مائة ألف دينار سنويا لقمع حركات المعارضة ضد الخلافة، أمـــا الأموال التي فرضها هارون الرشيد كضمان علي الأغالبة و يسمونها " جزية سنوية " فهي أربعون ألف دينار سنوياً، (ابن الأثير، الكامل ج، ص 56).

وفي مقابل ذلك، استحصل إبراهيم بن الأغلب عهد الخليفة هـارون الرشـيد و موافقته بتثبيته في ولاية أفريقية (منطقة تونس) سـنه 184 هـ ومـن ثـم الاعتراف والإقرار له بتأسيس إمارة تدين بالولاء السياسي و التبعيـة الاسـمية للخلافة واتخذ من القيروان عاصمة لولايته علي أن يقوم بتنفيذ التزاماتـه تجـاه الخلافة فلا غرو أن يسعى إبراهيم بن الأغلب للتعبيـر عـن إخلاصـه و مودتـه للعباسيين فاتخذت علاقاته مع القوي المعادية للخلافة طابع العداء.

فناهض الرستميين والمدراريين وذلك علي الرغم مما عرف عنه من المسالمة والحرص علي أسباب تلاشي الصراع غير انه لم يكن ثمة محيض عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها و بخاصة مع إمارة بني رستم و كذلك للبطش بالخوارج الصفرية المتيمين بالقيروان الذين كانوا يمالئون المـدراريين علـي أن الأغالبة دأبوا علي ترضية الخلافة بإيفاء الضمانات المالية أما موقف الأغالبة من الأدارسة فقد اتسم بالعداء حيث بدأ الأغالبة يترصدون أعداء حلفائهم ويحـاولون الإيقاع بهم متي استطاعوا إلي ذلك سبيلا فسخروا من اغتال راشد مولي إدريـس بن عبد الله مؤسس إمارة الأدارسة [1]، ووضعوا الخطط للكيـد مـنهم باسـتمالة العناصر التي تؤيدهم والعمل علي بـث روح الفُرقـة والتنـاحر بينهمـا سـواء باسترضائها بالأموال أو بالتهديد و الوعيد .

ويخيلّ إلينا، إن التحالف بين العباسيين والأغالبة كان له ردود فعل عنيفة مـن جانب بعض العناصر التي لم يكن يروق لها أن تري أي أثر للعباسيين أو سياستهم في بلاد المغرب، فنجد في ثورة " حمديس " الذي ثار في مدينة تونس في عهـد إبراهيم بن الأغلب وأبطل شعار بني العباس ذي اللون الأسـود[2] وثـورة أهـل

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 420 .

[2] استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقمع هذه الثورة و يهزم حمديس من مدينة تونس و أن يقتل معظـم أنصاره و مؤيديه الذين يقدر عددهم ابن الأثير بنحو عشرة آلاف ثائر (الكامل ج 5 ص 104) انظـر أيضا ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص419.

طرابلس علي الولاة العباسيين أو ولاة الأغالبة سنة 189 هـ[1] وثورة عمران بن مجالد في مدينة القيروان سنة 195 هـ [2] وثورة الجند في مدينة طرابلس سنة 196 هـ[3] وثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية في مدينة باجة سنة 207هـ [4] وثورة عمر بن معاوية القيسى في مدينة القصرين سنة 208 هـ[5]

---

[1] وكان أهل طرابلس قد ثاروا مرات عديدة قبل تولي إبراهيم بن الأغلب علي الولاة العباسيين لكن ثوراتهم قمعت وفي عهد إبراهيم ثاروا بعامله سفيان بن المضاء وهزموه واستخلفوه بإبراهيم بن سفيان فجرد إليهم إبراهيم بن الأغلب جيشا وهزمهم وقضي علي ثورتهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121).

[2] وكان هذا من رجال إبراهيم بن الأغلب تمرد عليه وأيده رجل اسمه حريش بن التونسي واجتذبت هذه الثورة كثيرا من الأنصار والمؤيدين واتجه هؤلاء الثوار نحو مدينة العباسية التي كان إبراهيم بن الأغلب قد اعتصم فيها غير أن هذا الأخير استطاع تمزيق صفوف الثوار بعد أن هزم عمران بن مجالد الذي هرب وأقام بالزاب وفي عهد عبد الله بن إبراهيم أعطي لهذا الثائر الأمان ثم قتل (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121، ابن خلدون، المصدر السابق ص 421 ابن الآبار، الحلة السيراء ص 105).

[3]) قامت علي أثر تولية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب علي طرابلس حيث ثار الجند وحاصروه في داره وأرغموه علي الهروب إلي القيروان غير أن عبد الله اجتذب إليه الأنصار من بعض القبائل ببذل الأموال لهم فكثرت حشوده وزحف بهم إلي طرابلس مرة أخري وقمع ثورة الجند ولكن أباه عزله واستعمل سفيان بن المضاء فثارت قبيلة هوارة وهاجمت طرابلس واحتلتها فاضطر إبراهيم بن الأغلب إلي تقليد ولده عبدالله القيادة الجيش فاستطاع هذا الأخير إن يسترد المدينة ويهزم هوارة لكن الرستميين انجدوها و حاصروا طرابلس حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب فاضطر ابنه عبد الله إلى مصالحة الرستميين وعقدوا اتفاقية بهذا الشأن وعاد عبد الله بموجبها إلي القيروان(ابن الأثير، المصدر السابق ص 156، ابن خلدون، المصدر السابق ص 420-421).

[4] استطاع زيادة الله بن إبراهيم قمع هذه الثورة وقتل القائمين بها (ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص97).

[5] استولي علي مدينة القصرين وكان من قبل عاملا عليها، فجرد زيادة الله بن إبراهيم جيشا حاصره أياما ثم استنزله بالأمان هو وولديه، حباب وسمعان فغدر بهم وقتلهم ويروي ابن عذاري قصة مقتل عمرو بن معاوية وولديه علي يد زيادة الله بالتفصيل (البيان المغرب ج1 ص97،98)

وثورة منصور بن نصير الطنبذي في مدينة طنبذة سنة 209 هـ [1] نقول أن هذه الثورات دليل ينهض علي احتجاج الثائرين ضد سياسة الأغالبة التي كانت تقوم علي التبعية و الولاء للخلافة العباسية و كذلك ضد الإجراءات التي كان يتخذها أمراء الأغالبة أو عمالهم في المغرب الادني من حين لأخر.

ومن المفيد أن نذكر أن عهد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم 196-201 هـ قد اتسم بالهدوء والاستقرار نتيجة لجوره وتعسفه فقد وصف بأنه كان " متعسفاً جائراً ظلوماً مع رعيته أحدث بافريقية وجوهاً من الظلم شنيعة " [2]، كما قيل عنه انه كان "جماعاً للأموال" [3] أما زيادة الله بن إبراهيم 201-223 هـ فتبالغ المصادر في القول بأنه كان من أفضل أمراء الأغالبة، فقد كان يمتلك المقدرة والكفاية السياسية والعسكرية إلي جانب ما عُرف عنه من حب للعلم وتقدير

---

[1] وهي من اعنف الثورات التي واجهتها الأغالبة ومن أشدها خطرا عليهم حيث انتفضت أفريقية علي زيادة الله بن إبراهيم فلم يبق في يده سوي الساحل و قابي. وكان منصور الطنبذي يحاول الاستيلاء علي تونس فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزة و أمره بمباغتته غير أنه لم يجده فنزل بدار صناعة السفن في تونس وأرسل إليه وفدا من شيوخ تونس لاسترضائه لكن منصور تظاهر بالإخلاص للاغالبة وعرض عليهم المبيت بغية السير معهم إلي زيادة الله وأرسل إلي محمد بن حمزة بقرا وغنما وعلفا فاطمأن لذلك غير أن منصور سجن الوفد وزحف مع أشياعه و أنصاره إلي تونس و هجموا ليلا علي الجيش هناك و قتلوا والي المدينة فلم يكن أمام زيادة الله إلا توجيه عساكره إلي الطنبذي بقيادة و زيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب المعروف بغلبون و لكن هذا الأخير هزم و استولي الثوار علي عدد من مدن أفريقية وخلعوا سلطة الأغالبة ثم زحفوا نحو القيروان و حاصروها ثم احتلوها لكن زيادة الله استطاع أن يهزمهم ويسترد المدينة. وفي 210 هـ عاود الثوار الهجوم علي القيروان واستولوا عليها وكتبوا إلي زيادة الله أن يرحل عن أفريقية ولكن أشير علي زيادة الله الاستعانة بقبيلة نفزاوة حيث ساعدته في إيقاع الهزيمة بالثوار وقتل قادتهم و في سنه 215 هـ تجددت الثورة في مدينه تونس و كان يقودها فضل بن أبي العنبر وأيده أنصار الطنبذي ولكن زيادة الله تمكن من إخمادها (ابن عذاري ، المصدر السابق ص 101 ابن الأثير المصدر السابق ص 158).

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 95

[3] ابن الخطيب المصدر السابق ص 15

للعلماء فأبتني القصور ومراكز الثقافة في القيروان والعباسية وتونس وسوسة وأسس نواة للأسطول الإسلامي المزود بالسفن الحربية و المعدات العسكرية .

فتح جزيرة صقلية:

لقد كانت سياسة الأغالبة تقتضي في هذه الفترة السعي لتحقيق الأهداف التي رسموها لتوسعهم في حوض بحر الروم (البحر المتوسط) ففي سنة 206هـ توجهت قطعانهم البحرية وأسطولها إلي الجزر القريبة من تونس ومنها جزيرة "سردانيا "[1] سردينيا، ولكن أهم عملية بحرية منظمة في عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم التى استهدفت جزيرة صقلية حيث تم فتحها فأصبحت جزءا من البلاد الإسلامية و توارث المسلمون حكمها أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدرا للثقافة و مركزاً من مراكز الحضارة العربية الإسلامية.

ولعل من أهم الدوافع لفتح جزيرة صقلية سنة 212هـ هو العامل الديني الذي يتمثل بالجهاد في سبيل الله و في محاولة القضاء علي غارات الروم البيزنطيين علي الثغور الإسلامية وعودة إلي السياسة التي جري عليها الأمويون في المبادرة لشن الغارات علي حدود البيزنطيين، أما العامل الاقتصادي فإن صقلية بلاد غنية و تمثل أراضي جديدة يمكن استغلالها وقد لعب هذان الدافعان دورهما في التأليف و التحشيد و إعداد الحملة [2]. إن اختيار القاضي أسد بن الفرات (وهو مصنف الاسدية في الفقه علي مذهب مالك بن أنس) قائدا للحلة عن روح الجهاد يضاف إلي أن زيادة الله كان يحرص علي الظهور بمظهر المجاهد المثاغر أمام الرعية كما انه كان يعاني من ثورات الجند فأراد أن يكسر شوكتهم و يتخلص منهم بإشراكهم في الحرب هذا من جهة، ومن الجهة الاخري فإن قائد الأسطول البيزنطي " فيمي euphemiu" أعلن تمرده علي الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي أمره بمواجهة الجيش الإسلامي حيث استولي هذا القائد علي مدينة " سرقوصة psiracuse " و نصب نفسه ملكاً علي صقلية و لكن أتباعه و جنده خرجوا عليه

---

[1] ابن عذاري م. ن ص 97.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 285.

فتمكن والي مدينة " بلزم palemo" من هزيمة فيمي والاستيلاء علي سرقوصة فلم يسع فيمي إلا اللجوء إلي الأغالبة حيث ساعدهم علي فتح الجزيرة اقلع أسطول الأغالبة و هو مؤلف من مائة مركب فيمي و استولي علي حصون كثيرة وحاصروا سرقوصه براً وبحراً وجاءتهم الإمدادات من أفريقية و بعد مناوشات بين الطرفين فتحوا مدينة بلزم وهي الميناء علي الساحل الشمالي للجزيرة و استمر جيش الأغالبة يحاصر المدن ثم يدخلها حتى سنة 223 هـ حيث توفي زيادة الله فلم يهنوا و قاتلوا الروم و هكذا بقيت جزيرة صقلية طوال عصر الأغالبة مركزاً لجهاد البيزنطيين ولم يكتف الأغالبة بهذه الجزيرة بل أغاروا علي جزيرة مالطة و احتلوها " [1]

لقد حكم إمارة الأغالبة بعد وفاة زيادة الله بن إبراهيم سنة 223 هـ عدد من الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء، وهو أمر طبيعي لان الأمراء الأول كرسوا قوتهم لكي يذبوا عنها الأخطار ومؤامرات المعرضين والمناوئين والثوار و إرساء دعائمها علي أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسة داخلية تقوم علي الإصلاح وإرضاء الرعية و تطمين مصالحها. ونستدل علي قوة الأغالبة ومنعت إمارتهم بناءهم لمدينة العباسية سنة 227 هـ بالقرب من مدينة تاهرت وذلك علي الرغم من قيام الرستميين بتخريب هذه المدينة [2]غير أنها ظلت قائمة رمزاً للتحالف بين الأغالبة و العباسيين.والظاهر أن اهتمام الأغالبة بإقامة المدن والمنشآت والمساجد و القناطر وحفر المراجل(البرك لخزن المياه)علي شكل صهاريج واسعة مستديرة لمياه الشرب والري، وبناء أسوار المدن والحصون والمحارس علي ساحل البحر [3] إنما يدل هو الأخر علي فترات الانتعاش والهدوء السياسي الذي ساد منطقة الأغالبة ففي 252 هـ قام محمد بن حمدون الأندلسي المعا فري وهو أحد وجهاء القيروان ببناء المسجد المنسوب إليه في القيروان [4]

---

[1] ابن عذاري، المصدر السابق ص 102 – 106 ابن الأثير المصدر السابق ص 187 ابن خلدون، المصدر السابق ص 426، د. إحسان عباس، العرب في صقلية ص 32.

[2] ابن الأثير، المصدر السابق ص 293.

[3] ابن خلدون، المصدر السابق ص 431.

[4] ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة فقد بني بالأجر و الجص و الرخام وتعد زخارف واجهته من أروع الزخارف (د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج2 ص 399.

وذلك في عهد الأمير أبي الغرانيق محمد بن أحمد 261/205 هـ، كما أقام الأمير إبراهيم بن أحمد 289/261 هـ مدينة قادة وبني فيها جامع الفتح سنة264 هـ[1]

أما مظاهر الصراع علي السلطة في إمارة الأغالبة، فيبدو واضحاً في الفترة الواقعة من 231 –290 هـ ولعل أوضح صورة لهذا الصراع ما جري بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم 226 – 242 هـ وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب، حيث كان هذا الأخير ساخطا علي أخيه بسبب تسلط وزيره علي أمور الإمارة، وكان من نتيجة خروجه علي أخيه أن استصفي خصومه واستأثر بالسلطة لنفسه ولم يبق لأخيه غير الاسم ولكن أحمد بن الأغلب عمد إلي تدبير مؤامرة للقبض علي أخيه و أعوانه و نفاهم إلي مصر[2] وكذلك ما حدث بعد تولي الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم حيث نسج له ابنه زيادة الله مؤامرة لقتله غير أنها كشفت فقبض علي زيادة الله و أودع السجن و لكنه عول علي فتيان الصقالبة فأمرهم بقتل أبيه [3] فتولي زيادة الله بن إبراهيم الإمارة سنه 290– 296 هـ و قرر الانتقام من أعمامه فنفاهم ثم قتلهم وقتل الفتيان الصقالبة الذين قتلوا أخاه أبا عبد الله الملقب بالأحول[4] .

ومن المحتمل أن تكون سلسلة الثورات بوجه الأمراء والأغالبة قد أوهنت في قواهم و جعلتهم لا يقوون علي مواجهة أي خطر خارجي قد يتعرضون له و بخاصة بعد أن استكملت حلقات هذا الوهن بالصراع علي السلطة الذي أضعفهم كثيراً أمام تدفق الخطر الفاطمي الذي راح يهدد بلاد المغرب برمتها والتهام إماراته ودوله والقضاء علي قواه السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة.

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق ص 5 ن ابن خلدون، المصدر السابق ص 431

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 108، ابن الأثير، المصدر السابق ج 5 ص270، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 21.

[3] ابن الأثير، المصدر نفسه ص 103.

[4] ابن عذاري المصدر نفسه ص 135 – 136.

ونعتقد أن الخاتمة التي وضعها الفاطميون لإمارة الأغالبة كانت خطة محكمة تنطوي علي الإعداد المسبق لها وقد تم اتخاذها من قبل قائدهم أبي عبد الله الملقب بالمحتسب حيث زحف بجيشيه بطريقه أرهبت أعدائه وأدخلت في قلوبهم الهلع والخوف، فلم تصمد جيوش الأغالبة أمام زحف الجيوش الفاطمية لثلاث مرات [1] حيث تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدئا في مدينة طنبة وبلزمة وباغاية وتيجسي وقصفة وبلاد قسطيلية والأربس وكذلك مدن مجانه وتيفاش وسبيبه وقموده وسكيانه وتبسه ثم القصرين[2] وأمام هذا التقدم الظافر للجيوش الفاطمية لم يقو زيادة الله علي الصمود وقرر الهرب إلي مصر فخرج متخفيا ليلا مع وجوه قومه وفتيانه وألف من عبيده الصقالبة وأفرغ ما في خزائن الإمارة من ذهب وجوهر ورحل من رقاده[3] تاركا إمارته أمام رحمة العساكر الفاطميين حيث أسدلت عليها الستار وسقطت سنة 296 هـ.

القيروان عاصمة بني الأغلب:

اختط عقبة بن نافع الفهرى، مدينة القيروان وأسسها لأغراض عسكرية ودينية سنة 50 هـ/670 م في منطقة تونس وبني في وسطها مسجدها الجامع وقد بقيت هذه المدينة ردحاً من الزمن مركزاً لجميع بلاد المغرب الإسلامي وعاصمة لافريقية[4] ويقدم لنا أبي عبيد البكرى، معلومات مفيدة عن القيروان تلقي ضوءا عن أحوالها الاجتماعية و العمرانية و تساعدنا علي القول أنها كانت نموذجا للمدينة الإسلامية في خططها ومنشأتها ودروبها وفنادقها وحماماتها وأبوابها و أسوارها[5] لذلك فقد اتخذها الأغالبة حاضرة لهم و عاصمة لدولتهم سنة 184 هـ

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق ص 130.

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 141، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص440.

[3] تذكر المصادر انه لما اتصل الخبر برقادة إلي زيادة الله علم أن الأمر خطير و أن الإمارة قد انقرضت فاستعد للهروب و اخذ في رفع الأموال و أصبح الناس غداة تلك الليلة إلي قصور زيادة الله فانتهبوها و اخذوا الأموال منها) ابن عذاري، ص147، ابن الطيب ص 42 ، ابن خلدون ص 441.

[4] ابن الخطيب، أعمال الإعلام ق 3 ص 9 هامش رقم (1).

[5] المغرب في ذكر بلاد أفريقية و المغرب ص 25.

فاكتسبت أهمية بين أمصار المغرب و قواعده ومدنه حتى وصفت بأنها " أم أمصار وقاعدة أقطار و كانت أعظم مدن المغرب قطراً و أكثرها بشراً "[1]

ويكمن القول أن التطور العمراني والاجتماعي التي شهدته القيروان في عهد الأغالبة إنما كان بسبب مركزها السياسي والديني وموقعها الجغرافي حيث تشخص علي الطرق التي تؤدي إلي الأندلس والمغربين الأوسط والاقصي من جهة و المشرق الإسلامي وموانئ الطرق التجارية الواقعة علي شاطئ أفريقية من جهة أخري ويذهب الدكتور الحبيب الجنحانى إلي القول أن خطط القيروان ومنشأتها ومسالكها تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم المعماري فقد بلغ طول الشارع التجاري الرئيسي فيها المسمي" سماط القيروان " ميلين وثلثاً أي بما يزيد عن الثلاثة كيلو مترات ونصف، ولا شك في أن هذا يدلل علي سعة المدينة و ضخامتها وتعدد مرافقتها و تشابك المصالح فيها [2]

ويبدو أن الأغالبة قرروا أن يقتفوا اثر المدراريين والرستميين والأدارسة في تأسيس مدن تمثل وجودهم السياسي والاجتماعي مثل سجلماسة وتاهرت وفاس فشرعوا في إقامة مدينة العباسية جنوبي القيروان ليتخذوها مقراً ومركزاً لهم[3] وللأسف لا توجد لدينا معلومات كثيرة ومفصلة عن هذه المدينة سوي النتف التي يذكرها ابن عذاري التي جاء فيها أن إبراهيم بن الأغلب شرع سنة 185 هـ أي بعد سنه واحدة من قيام إمارته في القيروان في بناء مدينة " القصر القديم " الذي هو نفسه مدينة العباسية علي الأرجح، وربما كان هذا القصر في بدايته داراً غير رسمية للأمير إبراهيم بن الأغلب ثم صار بعد ذلك " دار أمراء بني الأغلب " حيث

---

[1] الإدريسي، نزهة المشتاق في اختزان الأفاق ص 110.

[2]) المغرب الإسلامي ص 53.

[3] ربما كان الاغالب يتشبهون بحلفائهم العباسيين أو بالأمويين في الأندلس كانوا ينشئون لدولهم عواصم ملكية غير العواصم التقليدية التي كانت تضم طبقات و فئات اجتماعية قد لا يتوفر فيها الإخلاص لهم كما هو الحال بالنسبة للعباسيين عندما تركوا الكوفة و اتخذوا لهم الهاشمية مقرا ثم كيف أنشأوا بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثم سامراء في عهد الخليفة المعتصم بالله و كيف تركوا الفسطاط و أنشأوا مدينة العسكر في مصر و كيف بني عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء و محمد ابن أبي عامر الزاهرة في الأندلس.

نقلوا إليه السلاح والعُدد سراً وأقاموا فيه وأسكنوا عبيدهم وأهل الثقة من خدَميهم[1] وأن إبراهيم بن الأغلب هو الذي أطلق عليه اسم "العباسية " [2]تعبيراً عن ولائه لحلفائه العباسيين ولكن المؤرخ النفوسي يشير إلي أن الأغالبة في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم أقاموا مدينة العباسية سنة 239 هـ في بلاد الجريد[3] لتكون قاعدة عسكرية ينطلقون منها ضد الرستميين و عاصمتهم تاهرت ولمنع الأخطار المحتملة منهم فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية في تجارة مرور القوافل غير أن الرستميين أفلحوا في تدميرها وحرقها لاتقاء خطر الأغالبة في المنطقة [4].

وأغلب الظن أن مدينة أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم هذا تمثل المحاولة الثانية لإقامة مدينة بالاسم نفسه بعد عباسية إبراهيم بن الأغلب، أو إن الأول أقام المدينة نفسها بعد تخريبها من قبل الرستميين وأقام الأمير إبراهيم بن محمد 261 – 289 هـ" المدينة رقادة سنة 263 واتخذها داراً ووطناً انتقل إليها من مدينة القصر القديم" العباسية "وبني بها قصورا عجيبة وجامعاً وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق وغدت دار ملك لبني الأغلب " [5] ثم أصبحت هذه المدينة مركزا مهما من مراكز التجارة والعلم والحضارة بيد أن مدينة القيروان التي اعتمدها الأغالبة قاعدة لهم لم تبق محتفظة بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري فحسب بل أنها وصلت إلي أوج تطورها العمراني والاجتماعي والثقافي فهي" لم تزل دار ملك لبني الأغلب إلي أن هرب زيادة الله منها وهو آخر أمرائهم[6]

---

[1] البيان المغرب ص 92 – 93.

[2] ابن الأثير، الكامل ج 5 صر 154 ح ابن خلدون، العبر ج 4 ص 419.

[3] الأزهار الرياضية ج 2 ص 189، انظر د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 143

[4] البلاذرى، فتوح البلدان ص 227 ابن خلدون، المصدر السابق ص 200– 201.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب ص 94.

[6] البكرى، المغرب في ذكر أفريقية و المغرب ص 27.

الأمراء الأغالبة و الخلفاء العباسيين:

اتخذت علاقات بني الأغلب منذ قيام إماراتهم بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد، مع الخلفاء العباسيين طابعا وديا اتسم باستمرار صلات التحـــالف، وكـــان تـــولي الأمراء الأغالبة لولاياتهم قد استلزم عهدا بالولاية "التقليد" من الخلافة في مقابـــل التبعية الاسمية لها، وقد جري الأمر بهذا الشكل منذ تولي إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـــ وحرصت الخلافة أن تكون علاقاتها مع الأغالبة تسير علي نمط واحـــد في جميع العهود، ويبدو أن الأغالبة حرصوا من جانبهم كذلك علي ديمومتها بهذا الإطار ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً، ولكن من المحتمل جدا أنهم كـــانوا يراعـــون الظروف السياسية التي كانت تمر فيها إماراتهم وهي بين حشد من الأعداء ففـــي حين تحتم عليهم الاستجابة للعباسيين وتلقي " أوامرهم وإجراءاتهم التي في كتبهم "[1] فإنهم كانوا في أحيان أخري يفضلون الابتعاد عن مناجزة أية قوة سياسية أو مناهضتها والإحجام عن إذكاء أو تشجيع ما يؤدي إلي الخصومة والعداء معها فهم في ذلك يؤثرون حياة الهدوء والموادعة ولكنهم في ظروف أخري لم يعدموا إزاء الضغوط العباسية وسياسة التبعية، العمل علي مناهضة الكيانات القائمة وإرسالهم للعملاء والصنائع لغرض التطوح بها كما فعلوا مع الرستميين والأدارســـة وبنـــي مدرار وأمويي الأندلس.

ومن الواضح، أن الأغالبة بكونهم أداة الخلافة العباسية وعمالها فـــي أفريقيـــة ورمزا لنفوذها الوحيد في جميع بلاد المغرب الإسلامي، فإنهم يعجزون في كثيـــر من الأحيان عن تقديم صورة بلون آخر لموافقتهم وعلاقاتهم مع القوي والفئـــات والعناصر، وذلك لان هذه القوي قد تأصل عداؤها للعباسيين ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستبدل نظرتها تجاه الخلافة، فإذا شاء الأغالبة اتخاذ مواقف وعلاقات جديدة معها، فعليهم أن يعيدوا النظر في علاقاتهم مع العباسيين وأن يعلنوا شجبهم

---

[1] ابن خلدون، العبر ج 4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 17.

لسياسة العداء التقليدي التي تنتهجها الخلافة و نبذ الأحقاد القديمة و تطبيق سياسة تقوم علي التقارب و الموادعة و تحاشي التدخل و الشقاق.

ومن الجدير بالذكر أن كلا الطرفين العباسيين والأغالبة إذا كان حقا يغفلان العداء السياسي و إسقاطه من سجل العلاقات مع بعض العناصر في المغرب الإسلامي فإن هذه العناصر لا يسعها نسيان الخلافات المذهبية و العقائدية، مما يجعل أي مسعى من جانب الأغالبة للتوفيق معها غير مثمر لذلك ينكب الأغالبة علي تدبير المكائد و إحداث انشقاق بين هذه القوي و مناهضة حكامها [1]

وتفيض المصادر المتوفرة بمزيد من التفصيلات حول إمعان بعض أمراء الأغالبة في السير بهذا الطريق جرياً علي سُنة الخلافة وتنفيذاً لمشيئتها غير إنهم في ظروف معينة لا يسمعون فيها صوت الخلافة، ينتج توتر في العلاقات معها تضطرهم في نهاية الأمر، إما إلي الاستلام لمشيئتها و إما إلي التهديد و الوعيد بالخروج عن طاعتها [2].

وغني عن البيان، أن قيام إمارة الأغالبة لا يمثل في الواقع إلا استغلالا محدود الأفق، استقلال في السياسة الداخلية، أما تقرير سياستهم الخارجية وعلاقاتهم في المنطقة فتحكمه توجيهات الخلافة و أوامرها كما أنهم لا يملكون حتى التصرف بممتلكات العباسيين و شؤون أفريقية مما يجعلهم عاجزين في بعض الأحيان حتى عن الدفاع عن أنفسهم فالعباسيون لم يقدروا أن ينجدوا حلفائهم الأغالبة ويحولوا دون سقوط إماراتهم بيد الفاطميين الأمر الذي حدا بزيادة الله إلي تأكيد تحالفه مع الخلافة وطلب النجدة منها فأرسل كتابه إلي الخليفة المكتفي بالله ومعه هدية[3]

---

[1] ابن عذارى، البيان ج 1 ص 107، 119، 122، 123، 131، 137؛ لسان الدين بن الخطيب، أعمال ص 26، ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 253 259 ، 300 ، ابن خلدون ، العبر ج 4 ص 428 ، 431 .

[2] ابن خلدون، المصدر نفسه ص 422، ابن الخطيب، المصدر نفسه ص 17 (انظر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب ص 13).

[3] وكانت الهدية تشتمل علي مائة مثقال من الذهب و كتب في كل مثقال هذين البيتين من الشعر

يا سائرا نحو الخليفة قل له أن قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخلفة سله

(ابن عذاري، المصدر السابق ج 2 ص 137)

لإشعاره باستمرار العلاقات الرسمية بين الطرفين و انه علي أهبة الاستعداد لصد الهجوم الفاطمي الذي كان يستهدف بنظر زيادة الله الوجود العباسي ونفوذه في المغرب و لكن لم تنفع محاولات الخليفة في حث أهل أفريقية علي نصرة زيادة الله ومحاربة الفاطميين بكتاب أرسله وقرأه علي الناس هناك[1] فقد واصل الفاطميون تقدمهم في أملاك الأغالبة واحتلوا مدنهم، فلما اتصل الخبر بزيادة الله و هو في رقاده أيقن أن إسناد العباسيين المعنوي و الروحي و العسكري له لا يقوي علي الصمود أمام الفاطميين، فضلا عن أن أوضاع الخلافة هي ليست أحسن حالا مما آلت إليه إمارة الأغالبة من الضعف والوهن.

---

[1] وجاء فيه: ضرورة الوقوف صفا واحدا وراء الأمير المجاهد المطيع لأمير المؤمنين لقتال " عدو الله الخارجي الناجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره، أشياع الظلال وأوباش الجهال والباغين في الفتن وأن من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوكيدة و قربته عند أمير المؤمنين و كان حقيقيا بالاجتباء له و الإحسان إليه و السكون إلي ناحيته وأمير المؤمنين مرتضي لأمره حامد لطريقته واثق من صحته معتمد عليه في الصقع الذي هو به " د. موسي لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 289 نقلا عن مخطوطة النعمان بن محمد التميمي افتتاح الدعوة وابتداء الدولة مكتبة جامعة القاهرة رقم 24055) ابن عذاري، المصدر السابق ص 140.

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

1- تمهيد

الفاطميـــون

2- المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية

- علاقات الدولة الفاطمية السياسية

" في نطاق المغرب الإسلامي "

أ- الفاطميون ودولة بني العباس

ب- جزيرة صقلية بين المواطنين والعباسيين

ج- تطلع الفاطميين نحو مصر

د- الفاطميون وأمويو الأندلس

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

(197 – 365هـ / 909 – 975م)

تمهيد:

الفاطميون:

عرفوا بالإسماعيلية [1] أو السبعية أو التعليمية أو الباطنية [2]و لكنهم حرصوا اشد الحرص علي أن يعرفوا بالعلويين أو الفاطميين[3] بيد أن اسم العبيديين هو الشائع في الكتابات التاريخية و ذلك نسبة إلي عبد الله المهدي بن سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة 259 هـ في مدينة الكوفة و قيل في سلمية [4]و هو أخر الأئمة المستورين للإسماعيلية *.

يبدأ إهتمام الفاطميين ببلاد المغرب الإسلامي، بإرسال داعين من مقرهم في مدينة سلمية من بلاد الشام الواقعة بين حمص وحماه، إلي هناك، و هما عبد الله

---

[1] نسبة إلي إسماعيل بن جعفر الصادق، سادس الأئمة الاثني عشرية.

[2] الباطنية، من يعتقدون أن لكل نص باطنا يدركه الخاصة من الناس بطريق التأويل، و قد لقبوا بالسبعية لقولهم أن ادوار الإمامة سبعة و الانتهاء إلي السابع هو أخر الدور و كذلك لان تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة و أعلاها زحل، أما التعليمية فإن مذهبهم دعوة الخلق إلي التعليم من الإمام المعصوم و استخدام العقل (انظر: أبو حامد الغزالي فضائح الباطنية ص 11 – 7، (د. موسي لقبال: دور كتامه ص 203 هامش 41)

[3] لان أولاد عبيد الله المهدي هم أولاد فاطمة بنت النبي (ص) منهم علويين و لكن نسب هذه الأسرة كان و لا يزال موضوعا كثرت فيه أراء الكتاب و المؤرخين الاقدمين و المحدثين (انظر: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 57 – 79)

[4] ابن خنكان، وفيات الأعيان ج 1 ص 272.

* يرون أن الأئمة أو يمكن أن يكون ظاهرين جميعا بل ينبغي أن يستتر قسم منهم بتأثير الظروف و يلقب الأئمة المستورين بلقب " المستورون في ذات الله " وقد ترتب علي ذلك قيام عدد من الأئمة المستورين بين محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور الفاطميين (انظر: الشهر ستاني، الملل و النحل ج 2 ص 5، ابن أيبك الداوداري، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ج 6 ص 4)

بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني وأبو سعيد الحسن بن القاسم، حيث زودوا بالوصايا في استمالة القبائل المغربية لدعوتهم و مراعاة الحذر والتستر.

وقد استطاع هذان الداعيان أن يكسبان أنصار في مدن تاله ومرماجنه والأربس ونقطة ومسكيانه ومجانه وسبيبة وباغاية، مما أوجد للحركة الفاطمية ركائز سياسية في نضالها في التاريخ اللاحق في هذه المنطقة ومعروف أن أكثر حركات المعرضة العلوية بوجه الأمويين أو العباسيين[1]، كان نصيبها الإخفاق ولكن نجاح الادارسة الذين يمثلون العلويين من الفرع الحسيني شكل إرهاصاً بنجاح فرع الحسنيين الفاطميين في إقامة اكبر دولة علوية في بلاد المغرب الإسلامي هي الدولة الفاطمية[2] ولكن قبل أن يتوج نضال الفاطميين بقيام دولتهم استطاعت معارضة العباسيين أن تزرع بذور الحركة الانفصالية التي أينعت بظهور مجموعة من إمارات المدن و المراكز في المغربين الأوسط والأقصى، التي لم يتح لها التوسع، وبقيت داخل حدودها، ويلاحظ أن أغلبها كان علوي الاتجاه[3]، ومن المعتقد أنها كانت إرهاصاً مكملاً لما سبقه من أجل النهوض الفاطمي العلوي.

---

[1] المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 199 ابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية ص 201

[2] د. موسي لقبال، المصدر السابق ص 198 (أي أن الادارسة يرجع نسبهم ألي الحسن بن علي بن أبي طالب، والفاطميون إلي الحسين بن علي بن أبي طالب.

[3] ومن هذه الإمارات: إمارة هاز ، قرب المسيلة يسيطر عليها الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسن بن علي ، و منطقة متيجة (فررونة) وهي مركز لمحمد بن جعفر الحسني وحوض الشلف الذي يشقه نهر الشلف أكبر انهار الجزائر حيث توجد فيه مدن ومراكز عدة ومدينة سوق إبراهيم التي كانت يسيطر عليها فرع علوي من بني الحسن أولهم إبراهيم محمد بن سليمان بن عبد الله و إمارة تمطلاس في مضارب قبيلة مطماطة وإمارة ايزرج وحاكمها إبراهيم بن محمد المعتزلي والمدينة الحسنه وتليها مدينة تلمسان وهي دار مملكة زناتة " ومدينة العلويين وكانت مركزا لمحمد بن سليمان ومدينة فالوس وإمارة نكور لبني سعيد بن صالح و ارشقول لبني محمد بن سليمان و جزيرة اشتول وهي مركز حصين لجأ غليه العلو يون و منهم الحسن بن عيسي بن أبي اليعيش و مدينة ترناتة قرب الساحل تلمسان و مدينة حمزة (البويرة) نسبت إلي حمزة بن الحسن بن سليمان و مدينة تنس بقرب البحر مركز لبني محمد بن محمد بن سليمان ثم اختص بها إبراهيم بن محمد اليعقوبي الذي كتب عنها (انظر البكري ، المغرب ص 63 – 88 ، د . موسي لقبال، المصدر نفسه ص 209 -213).

ويبدو أن انتهاء الداعيين عبدالله بن علي بن أحمد الحلواني وأبي سفيان بن الحسن بن قاسم اللذين أرسلهما الفاطميين بوفاتهما أدي إلي اختيار ما عرفته المصادر باسم " الداعي " وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الذي يكني بأبي عبدالله وكانت له ألقاب عدة منها، الصنعاني والمحتسب والمعلم والصوفي والاحوازي[1] لكي يحل بأرض المغرب و يقود الدعوة الفاطمية بقوة السلاح، يذكر أن ابن عذاري أن أبا عبد الله التقي بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجاز و استمالتهم لدعوته واتفق معهم علي الرحيل إلي بلاد المغرب ليعبئ كتامة و بقية القبائل المغربية الاخري مثل عجيسة و زواوة ويكون قوة تستطيع أن تثبت أقدامها في هذه البلاد النائية من نفوذ الخلافة العباسية[2] .

وتبدأ بحلول أبي عبد الله لبلاد، مرحلة مهمة من مراحل اتصالاته و تقصيه للأوضاع والظروف في المنطقة حيث استطاع إن يوحد صفوف قبيلة كتامة للنهوض بأعباء الدعوة الفاطمية من الناحية العسكرية و كان يقول لهم: " إنما لا ادعوكم لنفسي وإنما ادعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت " ويبدو أن أول قوة يجابهها أبو عبد الله ويعلن تحديه لها هم الأغالبة و قد وجاء ما يشير إليه احد رجاله ليستطلع جلية الأمر لهذا الداعي بعد إن ظهر في مدينة" ايكجان " ولما عاد رسول الأمر كانت ردود أبي عبد الله علي رسالته تبعث علي الخوف وعدم الاطمئنان[3] حتى انه عُرف " أنه صاحب قطع دعوته " [4] وعلي الرغم من أن الأمراء الذين خلفوا إبراهيم بن أحمد قاوموا الحركة الفاطمية بجهود موفقة في

---

[1] يذكر المؤرخون انه لما اتصل بقائد العودة الفاطمية عبيد الله المهدي ووجد فيه الذكاء و النشاط ضمه إلي سلك دعاته ثم أرسله إلي مركز تكوين الدعاة الماهرين في بلاد اليمن حيث يوجد كبير دعاتها منصور اليمني الذي رحب به ووضح " أن ارضي كتامة موطأة ممهدة لك " ثم أرسله إلي ارض كتامة (النعمان ، افتتاح الدعوة ، الورقة 27 ؛ النويري ، نهاية الأرب ج 26 الورقة 25).

[2] د. مرسي لقبال، المصدر السابق 128.

[3] النعمان،افتتاح الدعوة الورقة 79-80.

[4] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 38-39.

مدن تازروت وميلة وايكجان غير أن الكارثة حلت بأسرة الأغالبة في مدينة الأربس/ حيث فر أخر أمرائهم زيادة الله إلي مصر ولكن كان من الممكن أن تشل الحركة الفاطمية ويبدد رجالها علي يد الأغالبة، لو لم يرتكب زيادة الله هذا بدافع الخوف علي نفسه و مركزه جرما كبيرا بقتله لأخيه أبي عبد الله محمد الملقب بالأحوال الذي أبانت الأحداث عن أهميته لاستمرار نظام الأغالبة وإمارتهم وقد وضح أن اختفاءه كان بداية النهاية لأسرة الأغالبة [1]

هذه هي الخطوة الأولي التي خطاها أبو عبد الله لغرض الدعوة الفاطمية في ربوع المغرب إما الخطوة التالية التي بدأ ينفذ خيوطها فهي التحركات العسكرية لإسقاط المدن والمناطق ومن ثم الإجهاز علي الإمارات و الدول الاخري ففي 289 هـ بدأت الأعمال العسكرية المنظمة فاتجهت صوب مدن الأغالبة لاجتاحها و كانت موقعة كينونه التي لصالح الجيوش الفاطمية، قد وضعت نهاية لمقاومة جدية من الأغالبة و سهلت تقدم الفاطميين مدن سطيف وبلزمة وباغاية وقرطا جنة و تبسه والقصرين في إقليم قمودة ثم الاستيلاء علي قسطنطينة وتيجي وقنصة ومن ثم دخلت جيوشهم مدينة الاربس مما أتاح لهم احتلال مدينة رقاد حيث تمت تصفية إمارة الأغالبة بالزحف النهائي علي القيروان فتراءي لأبي عبد الله انه لم يتبق أمامه سوي النهايات لاستحكام حلقات سيطرته التامة علي أهم بلد من بلدان المغرب فكتب إلي سيده عبيد الله المهدي يحثه علي القدوم إلي هذه البلاد فحل هذا الأخير متخفيا إلي مدينة سلجماسة عاصمة بني مدرار حيث أكرمه أميرها اليسع بن مدرار[2] ولعل اختياره للإقامة في سلجماسة كان بسبب إنها إمارة مستقلة سياسياً ومذهبياً عن العباسيين وحلفائهم الأغالبة غير أن وصول الجيوش الفاطمية إلي مشارف سلجماسة لإرغام أميرها علي الخضوع جعل هذا الأمير يأمر بالتضييق علي عبيد الله المهدي ووضعه في سجن انفرادي " سجن المطبق "

---

[1] د. لقبال ، المصدر السابق ص 263 .

[2] ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 14، ابن خلدون، العبر ج 4 ص 70.

وتعريض أتباعه ومرافقيه للتعذيب مما ترتب عليه أحكام الفاطميين السيطرة علي سلجماسة وهروب الأمير ورجاله ليلا في مجاهل الصحراء وعندئذ تم تحرير عبيد الله المهدي وأصبحت سلجماسة في إطار النفوذ الفاطمي.

وتوجه رأس الدعاة الفاطميين عبيدالله المهدي إلي رقادة عن طريق ايكجان[1] وبذلك يمكن القول أن قيام الدولة الفاطمية يبدأ بدخول هذا الأخير مدينة رقادة سنة 296 هـ كما يمثل ذلك بداية لظهوره بعد استتاره في قيادة الحركة السياسية الفاطمية علنياً بمساعدة قائد جيوشه وداعيته أبي عبد الله والظاهر أن الفاطميين كانوا يعولون علي اتخاذ رقادة قاعدة لدولتهم ومنطلقاً لجيوشهم بعد سقوط إمارة الأغالبة وذلك للوثوب علي القبائل المناوئة لهم وتصفية القوي السياسية التي ما تزال تتشبث بالبقاء في المنطقة وقد اتخذ عبيد الله المهدي جملة من الإجراءات " بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنئوه وأظهروا له السرور بأيامه وسألوه تجديد الأمان لهم "[2] ولعل من أهم الإجراءات التي اتخذها لقب " المهدي أمير المؤمنين " واصطناع وجوه جديدة من رجاله بإسناد ومناصب مهمة لهم في الدولة مثل الإشراف علي بيت المال و قضاء رقادة و ديوان الكتابة وديوان الخراج و الحجابة والتعيين علي منطقة قابس وإثبات الموالي وأبناء العبيد في ديوان العطاء وضرب السكة [3].

غير أن قرار عبيد الله المهدي بتصفية قائد جيوشه ومؤسس دولته أبي عبد الله يمثل مرحلة جديدة للدولة الفاطمية الفتية حيث عمد إلى تجريده من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجياً والإجهاز عليه واغتياله بخطة أعدها مع

---

[1] النعمان ، المصدر السابق الورقة 179.

[2] ابن عذارى ، المصدر السابق 158.

[3] م . ن .ص 158 -160.

رجاله وحاشيته والمقربين من أنصار أبي عبد الله [1] ويبدو أن من بين الأسباب التي دفعت عبدالله المهدي للتخلص من أقدر رجاله وأخلصهم له ما يزعم باتفاق أبي عبدالله وأخيه أحمد أبي العباس علي تحريض قبيلة كتامة وقبائل المغرب ضده والطعن في خلافته سرا وهو ما أشار إليه ابن خلدون حيث " دعا الناس إلي خلعه والقول أنه ليس الإمام المعصوم، فقال فيه المهدي أنه مفسد للهيبة " [2]

وقد أثار مقتل أبي عبد الله وأخيه [3] مشكلات بوجه الدولة الفاطمية، ربما هي في غني عنها في هذه الفترة الحرجة التي كانت تجتازها، حيث أظهرت بعض

---

[1] ذكر بن عذارى:" أن عبيد الله المهدي أمر عروبة بن يوسف الملوسي وجبر بن نحاسب الميلي ، أن يكمنا خلف قصر الصحن ، فإذا مر أبو عبد الله و أخوه أبو العباس طعنوهما بالرماح حتى يموتا فكمنا هناك مع جماعة من كتامه و بعث عبيد الله المهدي في أبي عبد الله و أبي العباس ليحضرا طعامه على جاري عادتهما معه ، فلما مرا بالموضع الذي فيه الكمين فخرج عروبة عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة " لا تفعل يا ولدي " فقال له عروبة " أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته و انخلعت له من الملك بعد توطئته " ثم طعنه بيد طعنه واحدة خر منها صريعا ووقعت في أبي العباس تسع عشرة طعنه و مكثا صريعين علي صف الحفير المعروف بالبحر إلي ما بعد الظهر ثم أمر عبيد الله بدفنهما فدفنا في الجنان و قال عبيد الله : رحمك الله أبا عبد الله و جازاك في الآخرة بقديم سعيك و لا رحمك الله أبا العباس فإنك صددته عن السبيل و أوردته موارد الهلاك ". (البيان المغرب ج 1 ص 164)

[2] جاء أن أبا عبد الله حث رؤساء كتامه علي امتحانه، و ذكروا أن شيخا منهم جاء إليه و قال له " جئنا بأية علي أمرك فقد شككنا فيك " فقتله المهدي على الفور(العبر ج 4 ص 76).

[3] وكتب عبيد الله المهدي إلي أنصاره في المشرق " أما بعد فقد علمتم محل أبي عبد الله و أبي العباس من الإسلام فاستنزلهما الشيطان فطهرتهما بالسيف و السلام " ابن عذارى المصدر السابق ص 165) و يروي هذا المؤرخ ما يدل علي استمالة المقربين من أبي عبد الله لاغتياله قائلا:"إن أبا عبد الله نام يوما بحضرة أصحابة و عنده جماعة من دعاة كتامة فتحرك في نومه فانكشفت سؤته فنظر بعضهم إلي بعض ولم يقدموا أن يستروه فمد عروبة بن يوسف يده إلي الملحفة التي كانت عليه فستره بها و انتبه أبو عبد الله فقال:" من سترني إذا انكشفت ؟ فقالوا له عروبة فقال:" هو و الله قاتلي " فجعل عروبة يبكي بين يديه و يقول له:" يا سيدي: مر بقتلي فقال له:" لا سبيل إلي ذلك.. لكنك والله قاتلي " فكان الأمر كما ذكر.

بطون كتامة الخلاف علي عبيد الله المهدي [1] وقيام مجموعة من كبراء أهل القيروان بمعارضة سياسته ودبروا له مؤامرة لاغتياله [2] وثورة أهل طرابلس علي عامل الفاطميين[3].

وعلي الرغم من أن الفاطميين استطاعوا إخماد الثورات والفتن هذه ولكن كان عليهم أن يواجهوا احتمالات المستقبل المشحون بالأخطار و نزر الشر و مصاعب الحرب الحقيقية سواء في ميادين القتال ضد الإمارات و القبائل المعارضة أو في الحواضر و المدن المغربية الكبرى حيث كانت تضم فئات و عناصر معادية و مخالفة لهم مذهبياً، ويذهب الدكتور موسي لقبال إلي أن التحول الذي شهدته الحركة الفاطمية من دعاية سرية تمتلك أنصار متطوعين و حشد من الدعاة التاريخية إلي نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم جديدة، أن هذا التحول فرض وضعا جديدا لأنصار الدولة من القبائل المغربية و بخاصة قبيلة كتامة، وأدي ي إلي حدوث انشقاق خطير بين بناة الدولة وأخص رجالها وإلي تصدع في صلب عقيدتهم [4].

---

[1] ابن عذارى، المصدر نفسه ص 165- 66.

[2] ومن هؤلاء المتآمرين: محمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق، و عبد الله بن محمد المعروف بابن القديم و محمد بن أبي رجال الباغائي و أبي الوهب عمرو بن زرارة العبدري (م. ن ص167)

[3] يذكر ابن عذارى، إن أهل طرابلس أغلقوا أبواب المدينة و قتلوا من كان داخلها من كتامة و قدموا علي أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرلين، فأخرج إليهم عبيد الله المهدي جيشا و حاربهم شهورا، و ذكر أيضا خروج أبي القاسم بن عبيد الله لمحاربة طرابلس فوجه إليها خمسة عشر ركبا حربية فلما وصلت إلي طرابلس اخرجوا إليها مراكبهم فحرقوا الأسطول و قتلوا من فيه و سار أبو القاسم في البر نحو طرابلس فأوقع بأهل هوارة ثم نزل طرابلس فحاربها و حاصرها حتى أطلقوا الميتة فرغبوا إلي أبى القاسم في الأمانة فأمنهم إلا ثلاثة أنفس اشترط التحكم فيهم و هم : محمد بن إسحاق القرشي و محمد بن نصر و رجل يعرف بالحوحة فدخل طرابلس و تحكم فيها سنة 300 هـ) م . ن ص 167 -169.

[4] دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 332.

المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية:

بعد الإطاحة بأبي عبد الله شرع عبيد الله المهدي بارتياد موضع لتأسيس عاصمة له لابد من القيروان، ليتخذها " عدة للشدة "[1] ولكي " تعتصم بها الفواطم ساعة من نهار "[2] فكان عبيد الله المهدي قد بدأ النظر فيها واستكمل فيها سنة 300 هـ و استكمل سورها سنة 305 هـ و تم الانتقال إليها سنة 308 هـ[3] عندئذ قال : " أمنت اليوم علي الفواطم "[4] ويوضح ابن عذارى " أنه في سنة 300 هـ خرج عبيد الله من مدينة رقادة مارا بتونس وقرطاجة ونواحي البحر فوقع اختياره علي جزيرة جمة فابتدأ بنيانها واتخذها دار مملكته وهي التي تسمي المهدية "[5].

ومهما تكن البواعث لبناء الفاطميين مدينة المهدية وجيهة إلي حد ما يبقي ما أشار إليه البكري يستأثر بالاهتمام حول النوايا التي كان يضمرها أبو عبد الله و أنصاره من قبيلة كتامة للإيقاع بعبيد الله المهدي و خلعه[6] علي حذرهم هذا الأخير، يدل عليه ثورة الكتاميين في مدينة القيروان[7] أما مدينة رقادة التي ولدت فيها الدولة الفاطمية و سلطتها و مؤسساتها فإنها علي ما يبدو لا تصلح لتطلعات المستقبل الذي ربما يحمل بين ثناياه الحاجة إلي قاعدة عسكرية يمكن الاعتماد عليها في التوسع صوب مصر أو الأندلس حيث:" استكثر بها من العدة والخزين "[8]أو الاحتماء بها من الغزاة و الطامعين و الطامعين و جعلها موقع مواجهات

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

[3] البكري، المصدر السابق ص 25 -30.

[4] ابن خلون، المصدر نفسه ص 80.

[5] البيان المغرب ص 169.

[6] م. ن. ص 30.

[7] وكذلك ما أشار إليه عذارى عن ثورة الكتاميين في القيروان حيث قدموا علي أنفسهم حدثا اسمه كادوا بن معارك ويعرف بالمالطي وزعموا أنه المهدي المنتظر (م. ن ص 166).

[8] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

قوية و صامدة أمامهم أو لجعلها مركز انطلاق لإخماد أعداؤه أو أنصاره في الأمس من الكتاميين.

حرص الفاطميون بجعل عاصمتهم الجديدة المهدية ميناءاً بحرياً وعسكرياً ومن ثم تجارياً لذلك اختاروا موضعها في جزيرة متصلة بالبر " كصورة كف اتصلت بزند "[1] والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهات ويمكن الدخول إليها من الجانب الغربي،[2] وكان لها "بابان من الحديد لا خشب فيهما وقد نُقش عليهما تخطيطات لرسوم الحيوانات"[3] حيث تغلق هاتان البوابتان فيحكم تحصينها و يصعب الدخول إليها أماناً وعنوة.

أما مرسي السفن في المدينة فهو منقور في صخر صلد يسع ثلاثين مركباً من المراكب القادمة من الإسكندرية أو الشام أو صقلية أو الأندلس وقد حصن هذا المرسى بسلسلة من الحديد لتمنع أساطيل البيزنطيين من الاقتراب إليها وجعل في المدخل الوحيد علي المدينة ستة عشر برجاً للرصد والمراقبة، كما أقيمت دار صناعة السفن علي غرار مدينة تونس وهي رصيف ترسوا فيه السفن يسع أكثر من مائتي مركب، و فيها قبوان كبيران طويلان يغطي المراكب الراسية أو الجاثمة بعد تصنيعها و آلاتها فيقيها من الشمس و المطر[4].

ويذكر ابن عذاري الاستحكامات الحربية في المهدية بقوله:" و بها دار صنعة الإنشاء العجيبة، و يخرج الجفن معموراً من خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو لأجل ذلك "[5]

إن تطلع الفاطميين إلي مصر والاستحواذ عليها بات يشغلهم فعدوا للأمر عدته باتخاذ عاصمتهم في شبه جزيرة قريباً من تونس ووسوسه وصفاقص وقفصه، وهي مراكز بحرية مهمة ترتبط بخطوط التجارة البحرية مع الإسكندرية، لكي يتاح

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

[2] البكري، المصدر السابق ص 25.

[3] م. ن ص 29.

[4] البكري، المصدر السابق ص 30.

[5] ابن عذاري، المصدر السابق ص 207.

لهم تحقيق أهدافهم التوسعية في مصر علي المدى البعيد من جهة والاعتماد علي أسطولهم في حماية عاصمتهم وتموينها عن طريق البحر إبان الأزمات من جهة أخري فضلا عما يترتب عليه من مكاسب سياسية و عسكرية في بلاد المغرب الإسلامي عامة.

ويخيل إلينا، أنه باكتمال بناء المهدية حسبما خطط لها عبيد الله المهدي بهذا الإطار برزت الدولة الفاطمية، دولة مقتدرة استطاعت بأمد ليس بالقصير أن تنفذ أهدافها البعيدة التي رسمتها أو في التوسع أو إخضاع الإمارات والدول في المنطقة وفيما يتعلق بالأندلس التي كان للفاطميين فيها مطامع توسعية فلم يكن من المستطاع تحقيقها حيث برز لهم حكام الأندلس وهم يذبون عن بلادهم تدخلات الفاطميين وتحرشاتهم في شئونهم الداخلية ومنعوهم من التقرب إلي سواحلهم بل درج هؤلاء الحكام علي الاجتراء علي مناطق الفاطميين في بلاد المغرب وأخذوا يناجزونهم في عقر دارهم مما أقنع عبيد الله المهدي باستحالة إسقاط الحكم الأموي هناك كما يتعذر القيام بالعمليات العسكرية ضدهم فألجأهم إلي تكرار محاولا تهم إلي مصر للمرة الثالثة حيث تكلل بالنجاح في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة 358 هـ [1]

---

[1] م. ن. ص 228.

علاقات الدولة الفاطمية السياسية

(في نطاق المغرب الإسلامي)

الفاطميون و دولة بني العباسي:

يمثل قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي وسيطرتها علي مصر فيما بعد منعطفا في التاريخ الإسلامي حيث شيدت حكما يقوم نظام الخلافة بغية تحدي القوي والعناصر السياسية و تقليص نفوذهما ومن ثم الإجهاز عليها أن لم يكن في جميع أنحاء العالم الإسلامي ففي بلاد المغرب في الأقل.

وكان العباسيون ينظرون إلي محاولات الفاطميين بزرع نفوذهم في بلاد المغرب وإقامة دولتهم هناك علي أنها تحد سافر لنفوذ الدولة العباسية الروحي والسياسي يجب بالأنظمة التي تدين لهم بالتبعية وفي مقدمتها إمارة الأغالبة وحث رعاياهم علي الوقوف صفا واحدا وراء هؤلاء المطيعين لأمير المؤمنين لقتال:" عدو الله الخارجي النجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره من كتامه أشياع الضلال و أوباش الجهال والباغين في الفتن لتطرفهم وقسوتهم علي غيرهم من المسلمين و إشاعتهم الفرقة والانفصال في المنطقة "[1]

لقد شعر العباسيون بخطر الفاطميين الحقيقي ليس بالاستحواذ علي بلاد المغرب فحسب و إنما علي جميع البلاد الإسلامية فراحوا يعملون علي تحشيد جميع المؤمنين بقدسية الخلافة العباسية و رسومها الدينية والسياسية و العسكرية و لكنهم في حقيقة الأمر كانوا بذلك يعبئون مشاعر فاترة تجاه الخلافة التي ساءت ظروفها في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة و تسلط العنصر التركي و هيمنته علي مقدرتها و حتى أننا لم نسمع عن اهتمام الخلافة العباسية بالتصدي للخطر الفاطمي بعدما أصيب الأغالبة بالهزيمة و السقوط.

---

[1] انظر موضوع " الأغالبة ودولة بني العباس " من هذا الكتاب ص هامش رقم .

جزيرة صقلية بين الفاطميين و العباسيين:

كان من المفروض أن تؤول صقلية إلي النفوذ الفاطمي بعد سقوط الأغالبة لكننا نقرأ أن تحركا عباسيا ضد إجراءات الفاطميين بإرسال واليهم الحسن بن أحمد بن علي بن أبي المنهال، وهو تحريك عملائهم في الجزيرة وتحريضهم ضد السلطة الجديدة التي لم تواجه بأدنى مقاومة في بداية الأمر، مما اضطر الفاطميين إلي تعيين وال أخر هو بن عمر البلوي سنة 299 هـ الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي أثمرت بانتفاضة ضد الفاطميين و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر و اتجاهات للثورة التي كان يغذيها العباسيون بموافقة الخليفة المقتدر بالله و بقايا أسرة بني الأغلب في الجزيرة.

حيث آلت بالإطاحة بالوالي الفاطمي وأعيدت الخطبة و الدعوة للعباسيين ويذكر بن عذارى إن أهل صقلية قدموا علي أنفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة 300 هـ وكتب الخليفة المقتدر بالله ببغداد بأن يكون 11 داعيا لهم وقائما بأمر هلا بجزيرة صقلية فأنفذ المقتدر ذلك لهم وبعث لهم بألوية سود وخلع سود وطوق ذهب[1] مما جعله يستمر في الثورة ضد الفاطميين.

وظلت المناوشات بين الفاطميين و العباسيين من اجل السيادة في جزيرة صقلية حتى سنة 336 هـ، إذا ولي الفاطميون بعد فرض سيطرتهم التامة عليها وإبعاد أي أثر للنفوذ العباسي عنها، الوالي الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي الذي أصبح رأس أسرة عربية جديدة في صقلية هي أسرة الكلبيين التي استمرت حتى الاجتياح النورماني للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري.

ويبدو لنا، أن التنافس بين القوي والمجموعات الإسلامية الكبرى وبخاصة بين الدولتين الفاطمية والعباسية حول توسيع مناطق النفوذ والسيطرة المباشرة وتغييب المصالح و طغيان الطموح كان علي حساب المجموعات الصغيرة في صقلية مما جعلها فريسة للفوضى وفقدان الأمن الأمر الذي أودي بضياعها

---

[1] البيان المغرب ج 1 ص 168.

وإنفصالها نهائياً عن البلاد الإسلامية ومن المبالغة القول أن سياسة الفاطميين وحدها هي المسئولة عن ذلك، بل يمكن تحميل العباسيين أيضا قسطاً كبيراً من عدم الشعور بالمسئولية عن تفريق القوي الإسلامية وبعثرتها والحفاظ علي البلدان التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من العالم الإسلامي وخاصة جزيرة صقلية حيث كانت مركزا للحضارة والعلم ومصدرا لإشعاعات الثقافة الإسلامية، وقد احتلت شهرة واسعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عدة فأنجبت العديد من العلماء والفقهاء والشعراء ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

تطلع الفاطميون نحو مصر:

أن سعى الفاطميين لبسط نفوذهم على مصر ومناطق بلاد الشام والحجاز لا يشكل لديهم تكتيكا سياسيا وعسكريا أنيا فحسب بل هدفا من أهدافهم الاستراتيجية في تعبيد طريق المشرق أمامهم وذلك على الرغم من أن الخلافة العباسية وقتها كانت تمتلك شيئا من القوة والنفوذ، حيث كانت لهل السيطرة علي ولايتي الشام والحجاز.

لقد توضح التخطيط الفاطمي بالتقدم نحو طرابلس وبرقة ومشاغلة ولاة مصر العباسيين لتمهيد الطريق نحو مصر، لذلك عول الفاطميون على قاعدتي طرابلس وبرقة اللتان كان لهما أهمية كبيرة في الوصول إلى الإسكندرية لأنهما من المراكز الأمامية القريبة من مصر كما وصفتا بأنهما "باب مصر"وينبغي علي الفاطميين ولوجها ولكن قبل ذلك أرسل الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي كتاباً لاستمالة مجد بن طفج الأخشيدي الذي كان يحكم مصر ليهّون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين[1] وكاد هذا الأخير أن يستجيب لمضمونه لولا تأثير مستشاريه وأعوانه الذين عدلوه عن الخطبة للفاطميين مما حدا بالخليفة المعز لدين الله الفاطمي تبني سياسة أباءه وأجداده فيما يتعلق بالتعرض إلي البلاد المصرية ونتيجة لذلك لم يشأ الفاطميون إلا أن يرغموا العباسيين علي التراجع حيث أسقط بأيديهم إذ رأوا تقدم

---

[1] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلا المغرب ج 1 ص 175.

الجيوش الفاطمية نحو مصر يقودها أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلي[1] حيث دخلت مدينة الإسكندرية دون مقاومة ثم تقدمت نحو مدينة الفسطاط وفرضت سيطرتها علي المدينة بالرغم من المقاومة التي أبداها الإخشيديون[2] وقطع الفاطميون بذلك الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله والدعوة للمعز لدين الله الفاطمي ولآبائه في المسجد العتيق و إزالة شعار العباسيين، و استهلت دار الضرب نشاطها بسك دنانير جيدة العيار[3] نقش عليها تاريخ الفتح واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين[4] وزاد الفاطميون باتخاذ مصر مقرا لدولتهم بتأسيس مدينة القاهرة سنة 360 هـ و جعلوها
عاصمة لهم [5]، أما القيروان أو المهدية فلم تكونا لتصلحا حاضرتين لدولة الفاطميين الكبرى لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع

---

[1] وهو من مسلمي صقلية و قد عرف بالرومي ولكن الغالب الصقلي لان صقلية أصبحت بلد إسلامية ينسب إليها (انظر ترجمته في أبي الفدا المختصر في أخبار البشر ج2ص115،ياقوت،معجم البلدان ح5ص372، وما كتبة عن جوهر الصقلي الدكتور موسي لبقال،دور كتامة ص483) .

[2] ابن عذاري. م.ن ص228،ابن الخطيب ،م.نص58-59 المقريزي اتعاظ الحنفا بذكر ألائمة الحنفا ، ص147).

[3] تزيد فيها نسبة معدن الذهب عن المعادن الأخرى المسبوكة.

[4] وشعارهم ينطبق (علي أفضل الوحيين وزير خير المرسلين) المقريزي المصدر السابق ج1 ص115-116، النويري، نهاية الأرب ج26 ص41.

[5] اختطها القائد جوهر الصقلي سنة 358 هـ، وتقع في السهل الرملي الممتد في شمال شرق الفسطاط، يحدها من الشرق جبل المقطم و من الغرب ترعة الخليج المتفرعة من النيل، وكان لها سور سميك يمر فوقه فارسان جنبا إلي جنب وفي الوسط اختط قصر المعز والجامع الأزهر وأطلق عليها اسم " المنصورة " تيمنا بمدينة المنصورية (صبره) التي بناها المنصور والد المعز لدين الله بجوار القيروان و بقيت هذه التسمية حتى جاء المعز إلي مصر سنة 362 هـ فأسماها القاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الخلافة العباسية وكانت القاهرة أشبه في بدايتها مدينة بالقاعدة العسكرية فلم يسمح بسكنها أوالدخول إليها بدون إذن خاص، وظلت كذلك حتى أواخر عهد الخليفة المستنصر الفاطمي(القرن الخامس الهجري)عندما أحرقت مدينة الفسطاط فانتقل أهلها إلى القاهرة. أما اصطلاح (القاهرة المحروسة) ربما يأتي من عزلتها و حراستها القوية فضلا عن أسوارها المنيعة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 48 - 49 هامش رقم 4).

الولايات الخاضعة لسلطتها [1].

ومن ثم بدأ الفاطميون يقلصون النفوذ العباسي فتقدموا لاحتلال بلاد الشام واعتبروها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر نحو بغداد حاضرة العباسين وكذلك نحو بلاد الحجاز حيث أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلي الحسن بن جعفر الحسني " بتقليد الحرم وأعماله " [2]، ولكن مع ذلك فقد أصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي كانت تهيمن روحياً و سياسياً علي العالم الإسلامي وذلك علي الرغم من أن قوة جديدة تمثله بالخلافة الفاطمية التي بسطت سيطرتها علي أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي.

الفاطميون وأمويو الأندلس:

اتخذت العلاقات بين الفاطميين وأمويي الأندلس طابعاً عدوانياً فقد اتجه الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب إلي تحقيق أهدافهم التوسعية نحو بلاد الأندلس التي تتوافر فيها الخيرات وتنعم بالاستقرار، فنشروا دعاتهم وعيونهم لاستطلاع أحوال البلاد السياسية والعسكرية والتعرف علي دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية زودوا عبيد الله المهدي بكثير من المعلومات عن أحوال الأندلس السياسية والإدارية ويبدو إن القاطمين لم يكتفوا لك بل اتخذوها الخطوات العملية في تحدي أمويي الأندلس والتحرش بهم فضلا عن إظهار قوتهم في أقصي بلاد العدوة فحاصروا سبتة، القاعدة الحصينة للأمويين ومركزهم المهم في الاتصال بزعماء المغرب إدارة الريف و الانطلاق نحو مراكز النفوذ الأموي في هذه البلاد.

أما إجراءات الأمويين في علاقاتهم مع الفاطميين، فيغلب عليها طابع الدفاع عن كيانهم السياسي ضد تعديات الفاطميين الذي اتخذ موقفهم طابع الهجوم ومن وسائل الأمويين في النضال ضد خصومهم الفاطميين اتخاذ لقب الخلافة وانتحال إمارة المؤمنين لتوجيه عواطف المسلمين في المغرب والأندلس وذلك لعزلهم وتحديد نفوذهم الديني والسياسي فضلا عن جهود الأمويين في جذب أنصار الفاطميين وولاتهم بمختلف الإغراءات ودعم حركات المعارضة والثورات وتبني

---

[1] د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 112 – 113.

[2] ابن عذاري م. ن ص 231 ابن الخطيب م. ن ص 58؛ المقريزي م. ن ص 120، ابن الأثير، م . ن ص 112.

العملاء و الصنائع والخارجين عليهم وتزويدهم بالأموال والسلاح، كما بعثوا عيونا ورقباء ووسطاء في جهات كثيرة من المغرب لبث الأفكار المضادة للنفوذ الفاطمي وأغلبهم كان يستتر بالتجارة أو بالزيادة فتمكنوا من تزويد الأمويين بمعلومات عن نوايا أهل الأندلس الذين كانوا قد توطنوا المغرب منذ القرن الثلث الهجري، وكذلك التجأ الأمويون إلي التشهير بالفاطميين وطرد العناصر المشبوهة من الأندلس والتضييق عليهم وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين، لما لم يتورع الأمويون من استعمال سلاح القرصنة للقضاء علي القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، حيث اهتموا بدور صناعة السفن و المراكب في مدن طركونه والمرية والجزيرة الخضراء ومالته وميورقة ولقنت وشلب، فأنشأوا أسطولاً قوياً ينازع سلطة الفاطميين في البحر المتوسط، استطاع هذا الأسطول الاستيلاء علي طنجة و مليلة سنة 314 هـ في حركة الوليد بن هشام الذي أدعي الانتماء و لبني أمية و استبد بشئون برقة و جعل هدفه مصر و كان أعوانه من قبائل لواتة و زناتة كما أن أنصاره في مصر، عربا من بني قرة و في التاريخ اللاحق للفاطميين أي بعد عبيد الله المهدي اعتمدوا وسائلهم الجديدة في الصراع مع الأمويين و أجداها هو التشهير والطعن بماضي الأمويين و موقفهم من القوي الإسلامية فكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يصف أعدائه الأمويين بالمتغلبين[1]، والظاهر أن هذه الحملة من التشهير ضد الأمويين قد أظهرت حركة معادية استهدفت الإطاحة بحكمهم وقد انتشرت هذه الحركة التي كان يقودها شخص قرطبي يسمي أبا الخير الداعي في مدن الأندلس، قرطبة والزهراء وسائر الكور، غير أن الأمويين استطاعوا تحجيم الحركة ومن ثم القضاء عليها.

ولعل من المفيد أن نذكر أن كلا الطرفين استخدما قوي سياسية لاستعدائها ضد الطرف الآخر، و كان الأدارسة قد لعبوا هذا الدور بكونهم صنائع وأعوان تارة للفاطميين وطوراً للأمويين ولكن تسخيرهم بهذا الاتجاه لم يخدم وجودهم بل عجل بنهايتهم وسقوط إماراتهم سياسياً وعسكرياً[2].

---

[1] كان المعز لدين الله الفاطمي يصف الأمويين أمام من يحضر مجلسه بأوصاف كثيرة لكي يحط من شأنهم (انظر للاستزادة د. موسي لقبال، المصدر السابق ص 382.

[2] السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 89.

الفصل التاسع

دولـة المرابـطـيـن

1- أصل المرابطين

2- مراكش عاصمة المرابطين

3- المرابطون و الخلافة العباسية

الفصل التاسع

دولة المرابطين

(448 – 541هـ / 1056 – 1147م)

أصل المرابطين:

يجمع المؤرخون علي أن أصل المرابطين من قبائل صنهاجة اللثام الجنوبية الضاربة في الصحراء الموريتانية، و بطونها، لمتونه وجداله ومسوفه، وقد تحالفت هذه البطون لتواجه ظروف المغرب الإسلامي، وكانت لمتونه قد تولي رئاسة هذه القبائل وسيطرت عليها، فبرز من بين رجالها محمد بن نيفات اللمطي [1] ليقود قبائل صنهاجة غير أنه قتل، فتولت جدالة الرئاسة ممثلة بيحيي بن إبراهيم الجدالي[2] الذي سعي إلي طلب العلم الدينية في مدارس القيروان و فاس فتعرف هناك علي شخصية " وحاج بن زللوا اللمطي الذي ندب أحد تلامذته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي "[3] لتفقيه قبائل صنهاجة، و هناك في مضارب لمتونه شرع هذا الأخير في التثقيف و الإرشاد إلي أصول الدين و فروعه و لكن وفاة يحيي بن إبراهيم الجدالي دفعت هذه القبائل إلي الانصراف عن الأحكام و الحدود التي كان قد وضعها لهم عبد الله بن ياسين حيث ثقلت عليهم وطأته فبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي كانت تدعوا إلي رفع المنكرات وإجتناب المحذورات [4].

اتجه عبد الله بن ياسين إلي بلاد السودان، عله يجد أنصاراً له هناك و قد صحبه سبعة من رجال صنهاجة انتبذوا لهم موضعا في ربوة من الأرض تحيط بها المياه من جهاتها الأربع، ولم يلبث أن أسس رباطاً " والرباط من المرابطة أي

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 226.

[2] م. ن ص 227.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 76، ابن الخطيب م . ن ص 226.

[4] ابن الخطيب م . ن ص 227.

ملازمة الثغور للجهات حيث ترابط خيل المجاهدين " اجتمع له فيها نحو ألف رجل سماهم المرابطون [1] اخلصوا له وأطاعوه واستطاع أن يحولهم من مجرد رعاة جناة إلي طبقة من المحاربين المؤمنين برسالتهم في الإسلام وكون منهم ومن غيرهم الذين التحقوا به جيشاً جعل علي قيادته صاحبه " يحيي بن عمر "[2] وهو من قبيلة اللمتونيين الصناهجة وانطلقت قوات المرابطين نحو المغرب الاقصي وسرعان ما خضعت لهم قبائل لمتونه ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى درعت التي يقول عنها ابن الخطيب أنها تقرب من سبعين قبيلة [3] ثم اتجهوا نحو درعة سنة 445 هـ في إعداد ضخمة وهزموا جيوش مغراوة وصاحب سجلماسة ودرعة ودخلوا مدينة سلجماسة كما نشطوا في محاربة قبيلة زناتة وهي من كبريات القبائل في مناطق تافيللت فانضمت إليهم قبيلتا جزوله ولمطة واستطاعوا الاستيلاء علي بلاد السوسي سنة 448 هـ، واسترداد واحات درعة والتوغل في احوازها واجتيازهم الأطلس الغربي واحتلال بلاد جدميوه.

وواصل المرابطون تقدمهم فدخلت جيوشهم الكثيفة مدينة أغمات وما حولها سنة 445 ثم تدفقوا علي بلاد المصاعدة وحاربوا قبيلة برغواطة في إقليم تامسنا والريف الغربي و كان من نتيجة هذه المعارك أن قتل عبد الله بن ياسين سنة 450هـ وذكر ابن الخطيب أن قائد المرابطين هذا جمع أصحابه وحثهم علي الوحدة والتماسك قبل أن يموت [4] وقد تولي يوسف بن تاشفين اللمتوني أمر

---

[1] وعرفوا أيضا " الملثمين " لأنهم كانوا يصنعون كثاما يقيمهم هاجرة الصحراء و بردها و يورد ابن الأثير رواية عن اتخاذ اللمتونيين، اللثام " سنة " و غدوا لا يزيلونه ليلا و نهارا حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (الكامل ج 9 ص 223) ثم انظر:د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام و السياسي و الديني و الثقافي ج 4 ص 115 هامش (3).

[2] وهو ابن عم عبد الله بن ياسين الذي قتل في هذه المعارك و خلفه أخوه أبو بكر بن عمر الذي اتخذ يوسف بن تاشفين قائدا من قواده.

[3] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 225.

[4] أعمال الإعلام ص 230.

جيوش المرابطين[1] وبدأ يزحف به نحو المغرب الاقصي فاحتل مدينة فاس سنة 454 هـ وراح يتجول بأطراف المغرب ثم عمد إلي تأسيس مدينة مراكش لتكون عاصمة للمرابطين ومنطلقاً لهم ومركزاً لقواتهم في جنوب المغرب بدلاً من مدينة أغمات.

وسعي يوسف بن تاشفين إلي تمويه الأوضاع لصالحه وتفرده بحكم المرابطين فيروي ابن الخطيب أن زوجة يوسف بن تاشفين، أشارت عليه أن يستبد بأمر عمه أبي بكر بن عمر الذي كان قد اختاره قائدا في جيوشه، فيلاطفه بالأموال والطعام والكساء ويرده إلي الصحراء التي خرج منها نفعل ذلك ومضي أبو بكر بن عمر إلي الصحراء سنة 465 هـ حيث قتل هناك في احدي معاركة في بلاد السودان سنة 480 هـ [2] وبذلك برز يوسف بن تاشفين أميرا أو أحد لدولة المرابطين.

مراكش عاصمة المرابطين [1]:

يمكن القول أن تأسيس مدينة مراكش[3] كان بمثابة حلول مرحلة جديدة في بلاد المغرب خاصة وفي العالم الإسلامي حيث أصبحت من مراكز الثقافة والعلم

---

[1] علي أثر الشقاق الذي حدث بين قبيلتي لمتونة و مسوفة ببلاد الصحراء، رأي أبو بكر ابن عمر، ضرورة وجوده إلي جانبهم في الصحراء ليصلح بينهما، فعهد إلي ابن أخيه يوسف بن تاشفين قيادة الجيوش و قتاله قبيلة زناتة المعارضة (ابن الخطيب المصدر السابق ص 232).

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 233.

[3] مراكش اسم مشتق من اوراكش وتعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود وإنما سميت نسبة إلي عبد أسود كان يقيم في موضعها ويخيف المارة اسمه مراكش كما تعني مراكش عبارة امشي مسرعا في لغة المصامدة لان موضعها كان مأوي اللصوص وقطاع الطرق وكان المسافرون يقولون لرفقائهم هذه العبارة عند مرورهم بهذا الموضع (عبد الواحد المراكشي، المعجم في تلخيص أخبار المغرب ص 100، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج 5 ص 90) و مراكش مدينة عظيمة في المغرب الاقصي علي سفح جبل الأطلسي الكبير ويمر في شمالها نهر تانسنيت و تمتاز بخصوبة تربتها الحمراء وجودة مناخها ومناظرها الخلابة حيث توجد فيها غابات النخيل الخضراء وبجوارها الثلوج البيضاء علي قمم جبال الأطلسي وقد تحققت عظمتها أثناء الموحدين الذين اتخذوها هم أيضا عاصمة لإمبراطوريتهم الواسعة وتركوا فيها مآثرهم و أهمها مسجد الكتبية وصومعته المشهورة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234 مع هامش رقم 1).

والسياسة وحاضرة لدولة المرابطين الكبرى ولعبت دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية والعسكرية فضلاً عن نفوذها الديني والفكري حيث كانت دولة المرابطين تستند قوة دينية سلفية وعلي الرغم من اختلاف المؤرخين في تعيين إختطاط المدينة فإن الإجماع علي بناءها كان في سنة 454 هـ إذ تم الانتهاء منها سنة 459 هـ [1] وكان تأسيسها علي يد يوسف بن تاشفين.

" فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء " [2] ويوضح المؤرخ ابن أبي زرع ذلك، أن يوسف بن تاشفين، اشتري موضع مراكش من جماعة المصامدة فسكن الموضع بخيام من الشعر وأسس مسجدها الجامع وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه " [3] وذكر أمير المرابطين نفسه كان يعمل في الطين والبناء مع الخدم والفعلة لتشيد المسجد والظاهر أنه لم يؤسس سوراً حول المدينة ولكنه نشط بحفر الآبار وجلب المياه إليها غير أن ابنه علي بن يوسف ابتني سور المدينة سنة 526 هـ و جعل لهذا السور أبواب عدة منها باب أغمات و باب دكالة وباب الدباغين وباب الصالحة و باب الشريعة.

ومن المفيد القول، أن مراكش بقيت تحافظ علي سمعتها العامة كقاعدة عسكرية لقوات المرابطين حتى دخلتها جيوش الموحدين، فأقاموا فيها الدور و اتخذت القصور وجلبت إليها المياه من أغمات لسقاية بساتينها و يشير صاحب كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار إلي أن مراكش " ارتقت أيام المودين فأقيمت فيها المنشآت العظيمة و أمهرت بمختلف أنواع المباني ومنها البيمارستان (المستشفي) الذي وصف بأنه أعظم ما أقيم في العالم الإسلامي و قد سمي بـ (دار الفرج) ويقع في شرق الجامع " يدخله العليل فيعاين ما أعده فيه من المنازة والمياه

---

[1] لم يشر البكري الذي كان معاصرا إلي تاريخ بناءها سنة 454 هـ لذلك يذهب بعض المؤرخين أن تأسيسها كان سنة 462 هـ و إلا ما فات أن يشير إلى ذلك.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234.

[3] الأنيس المطرب في بعض القرطاس ص 89.

والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمهما ويستستفيهما فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالي " [1]

لقد ساهم وجود مراكش إلي حد كبير في تدعيم مركز المرابطين و نفوذهم في المغرب الإسلامي وأوجد لهم مركز انطلاق لإخضاع بعض القبائل مثل غمارة وغياثة وبني مكود و مغراوة، كما تم لهم الاستيلاء علي مليلة ووجدة و بلاد بني سناس وعلي تلمسان و تنسي و وهران و جبل وانشريثي [2] وبعد أن أتم يوسف بن تاشفين احتواء الأندلس في معركة الذلاقة الشهيرة ضد جيوش الممالك الأسبانية الشمالية [3] ، أصبحت مراكش عاصمة لقطرين هما المغرب و الأندلس

علي أن دولة المرابطين، بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ و تولي ابنه علي، كانت في أوج قوتها، إذ أصبحت إمبراطورية كبري تمتد من بجاية شرقاً إلي السوسي غرباً ومن السودان جنوباً إلي سرقسطة والثغر الأعلى في الأندلس شمالاً وكانت مراكش مركزا للحكم و انطلاق الجيوش. غير أن حكام المرابطين بدأوا يفقدون قوتهم بعد انغماسهم في الترف و الرفاهية و الرقة بسبب فقدانهم لخشونتهم كرجال حرب، فضلا عن سيادة الثقافة الأندلسية في مراكش التي تسربت إليها من الأندلس حيث خففت كثيرا من جفونهم فتدهورت جيوشهم وأصبحت لا تقوي علي قمع الثورات و الاضطرابات والتمردات المستمرة في بلاد المغرب والأندلس، إضافة إلي ما تعرضوا إليه من الضربات العنيفة التي كانت تسددهما لهم الممالك الأسبانية الشمالية، مما أدي إلي استنزاف قواهم و قضي علي مواردهم هناك و قد خذلهم أهل الأندلس لما طلب المرابطون معونتهم المادية و البشرية فتحولوا عنهم و طردوا و لاتهم فبدأت علائم الضعف تدب في جسم دولتهم و بخاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين و تولي ابنه تاشفين، حيث

---

[1] مجهول، ص 210.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 381.

[3] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 723؛ د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 119؛ د. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب و الأندلس ص 305.

توالت علي هذا الأخير الهزائم في المغرب علي أيدي قوة جديدة هم الموحدون، وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف سنة539 هـ انطلقت ثورات الأندلسيين بوجه المرابطين[1].

ولعل من أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها، هو العامل الديني المرتبط الفقهاء المرابطين الذين لم يولوا دراسة الحديث، الاهتمام ما يستحقه فهم لايرجعون إلي الأصول لاستنباط الأحكام، وإنما بالأحاديث المجموعة في كتب الفروع، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن علم أصول الفقه الذي تستنبط بمقتضاه الأحكام الشرعية؛ كما اتخذ المرابطون " فلسفة التجسيم " وهي الالتزام بالآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها ذكر صفات الله، النص الحرفي لها، مما يفضي إلي تجسيم للذات الإلهية وإلي إثباتات نظرية لصفات جسمانية لله تعالي، فضلا عما أثارته قراءة كتاب "إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي في بلاد المغرب من موجة من الغضب لدي فقهاء المرابطين، حيث أن الغزالي كان قد فضح فيه نزعات هؤلاء الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحصولهم علي المناصب الدينوية مما اضطر الأمير علي بن يوسف علي حرق كتب الغزالي علي باب مدينة مراكش نتيجة لضغط الفقهاء عليه، حيث أثار هذا الإجراء أهل المغرب فدفعهم إلي تأييد ثورة المهدي بن تومرت زعيم الموحدين .

---

[1] مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص 63.

المرابطون و الخلافة العباسية:

تشير المعلومات المتوفرة لدينا، إلي أن العلاقات بين المرابطين و خلفاء بني العباس قد اتخذت طابعا وديا، حيث لم يشأ يوسف تاشفين أن يتلقب بألقاب الخلافة احتراما لمنزلتهم الروحية، و قد علل أمير المرابطين عدم تلقبه بأمير المؤمنين و هو ما اختص به الخلفاء العباسيون عندما طالبه بعض أصحابه بذلك قال:" حاشا لله أن نتسمي بهذا الاسم إنما خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة و لأنهم ملوك الحرمين و المدينة و أنا راجلهم و القائم بدعوتهم "[1]

لقد استخدم المرابطون، السواء، وهو شعار العباسيين، شعارا لهم في ملابسهم و أعلامهم، و تلقب يوسف بن تاشفين، بلقب " أمير المسلمين " و" ناصر الدين " منذ سنة 468 هـ، حتى إن ابن عذاري يذكر صراحة، أن يوسف بن تاشفين " كان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمي بأمير المسلمين " [2]و بخاصة بعد انتصاره في معركة " الذلاقة " التي حاولت الممالك الأسبانية الشمالية أن تقوض الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، وبعد إسقاطه ملوك الطوائف الذين تفردوا بالحكم هناك وكتب إلي الخليفة العباسي يطلب منه الخلع والإعلام السود والتقليد فلم يعترض الخلفية علي ذلك و لعل من مظاهر توطد العلاقات مع الخلافة العباسية، أن المرابطين نقشوا أسهمهم علي السكة وذلك منذ سنة 450 هـ إلي جانب اسم " عبد الله " الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة المستظهر بالله إلي علي بن يوسف بن تاشفين، علي إن اسم هذا الخليفة هو أحمد [3].

---

[1] كتاب الحلل الموشية ص 65.

[2] قامت حول هذا اللقب شكلة شرعية و هي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميرا للمسلمين ؟ علي أن هذا الأخير لم يصرح للخطباء بإقامة الدعاة إلا بعد أن أرسل بعثة من الفقهاء إلي الخليفة العباسي المستظهر بالله ، يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فلم ير الخليفة بدا من عرض هذا الأمر علي فقهاء بغداد الذين اجتمعوا برئاسة الإمام أبي حامد الغزالي سنة 484 و أقفوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا الكتب (ابن عذاري المصدر السابق ج 4 ص 124 ، د . حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 313.

[3] ابن الأثير، الكامل ج 10 ص 51.

ويزيدنا ابن الأثير توضيحاً، من أن العلماء خاطبوا يوسف بن تاشفين لدي عودته من بلاد الأندلس منتصرا ودخوله مراكش حاضرة ملكه، بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة في الخطبة و يأتيه عنه تقليد بإقراره فأرسل رسله إلي بغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولُقب بلقب " أمير المسلمين وناصر الدين " ويمضي هذا المؤرخ قائلاً، أن يوسف بن تاشفين لما استولي علي بلاد الأندلس جميع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له:" ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك علي الكافة، فأرسل إلي الخليفة رسولا يحمل هداياه و معه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة ويطلب منه تقليدا بولاية الأندلسي التي دانت له، فبعث إليه الخليفة، التقليد بالحكم و لقبه " أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع "[1] وهكذا تقدم لنا هذه المعلومات، الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخلافة العباسية بالمرابطين طوال مدة حكمهم للمغرب الإسلامي والأندلس التي استغرقت قرناً من الزمن تقريباً.

---

[1] م. ن. ص 57.

الفصل العاشر

دولة الموحدين

1- تـــمهيد

2- علاقات الموحدين بالخلافة العباسية

الفصل العاشر

دولـة الموحدّين

(541 - 646هـ / 1143 – 1248م)

تمهيد:

أورث أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي (485 /524هـ) وهو مؤسس الدعوة فقيهاً في جماعة، أفكاره وآراءه في التوحيد الذي هو رأس أركان الإيمان في الإسلام وسرّ العقائد الإيمانية الذي هو علم الاعتقاد وحتى عرف مريدوه وأنصاره وجميع من آمن بدعوته بالموحدين، لأنهم أول من تحدث بهذه الآراء في بلاد المغرب، وقد أصبحوا، بعد وقت وجيز من سريان الدعوة، القوة التي أعلنت الثورة على المرابطين إذ بدأوها منذ سنة 514 هـ وسرعان ما تحوّلت حركتهم الدينية[1] إلى حركة سياسية لإسقاط دولة المرابطين وإقامة دولتهم على أنقاضها.

خاض محمد بن تومرت مبارك عدة ضد المرابطين، تكبد هؤلاء فيها هزائم متتالية وتوالت انتصارات الموحدين، فكان من نتيجتها أن وجّه محمد بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى طاعته وينذرهم بسحقهم إذا لم يستجيبوا، وقد أورد صاحب الحلل الموشية نص هذه الرسالة بقوله "...وكفا بنا هذا إليكم أعذار وأنذار، وقد أعذر من أنذر"[2] ويعدد لنا أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، المواقع بين المرابطين والموحدين، ويقول إنها بلغت ثمان غزوات متوالية[3]، الأمر الذي أتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على منطقة

---

[1] قامت فكرة الموحدين على أساس " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ووجوب الاعتقاد في استقاء الأحكام على القرآن والسُنّة دون غيرهما، وموافقة مذهب أبي الحسن الأشعري سوى مسألة الصفات ، فإنهم وافقوا المعتزلة في نفيها

[2] مجهول ص 81

[3] كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص 74 – 78

السوس. وفي سنة 518هـ سار محمد بن تومرت بقواته نحو منطقة " تينملل "[1] الصغيرة التي تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن وهو أحد شعاب جبال الأطلس، المشرفة على مراكش بمسافة لا تزيد عن المائة كيلومتراً واتخذها داراً ومعسكراً وقاعدة للانطلاق، وبدأ يرقب عن كثب، المرابطين وتحركاتهم حتى سنة 520 هـ، حيث بادر إلى تنفيذ خطة الهجوم على نطاق واسع فأرسل جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير، وقد التقى هذا الجيش بجيوش المرابطين التي هزمت وجّد الموحدون في مطاردتهم، غير أن أكبر المعارك التي خاضها الموحدون ضد أعدائهم، هي التي وضع خطتها محمد بن تومرت سنة 524 هـ، حيث أفضت إلى الدخول في مراكش، ولكن المرابطين استعادوها منهم في السنة التالية.

لقد تأهب محمد بن تومرت للمعركة الفاصلة وجمع أنصاره وعساكره ووجّه إليهم رسالة يحثّهم فيها بإنهاء المرابطين الذين سمّاهم باسم " الملثمين " أو " المجسمّين " أو " الزراجنة "[2] وجعل قائديه المعتمدين أبا محمد البشير وعبد المؤمن بن علي في مقدمة جيوشه، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمرابطين في البداية، لكن الموحدين لم يستطيعوا أن يدخلوا مراكش مما جعلهم يعبئون لمعركة أخرى زادوا فيها ضغوطهم وهزموا المرابطين ثم زحفوا نحو مراكش ورابطوا أمام أسوارها وأبوابها واستمروا في حصارها وبدأت المناوشات بين الطرفين، كان المرابطون يُهزمون فيها في كل مرة، ومع ذلك فان الموحدين لم يستطيعوا أن يصنعوا نهاية للمرابطين الذين استنفروا سائر أمراء القبائل

---

[1] يكتبها ياقوت " تين ملل " ويقول أنها جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أو لها ومراكش سرير ملك بني عبد المؤمن بن علي بها كان أول خروج محمد بن تومرت (معجم البلدان ج 2 ص 445).

[2] تشبيها لهم بطائر الزرجان وهو أسود البطن أبيض الريش، فالمرابطون باعتقاده بيض الثياب سود القلوب (الحلل الموشيه ص 86، انظر محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحّين في المغرب والأندلس / القسم الثاني ص185

المغربية الموالية لهم وولاتها وقادتها، فوافقهم بالعساكر والحشود وكان من نتيجة ذلك إن وقعت بين الطرفين اكبر معركة هي معركة البحيرة هُزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر فادحة، إذ قتل منهم عدد كبير ولم ينج من عساكرهم إلا أربعمائة بين فارس وراجل وسقط بين القتلى أبو محمد البشير اكبر قادتهم وقتل معه معظم الرؤساء والقادة ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت[1] .

وفي 524 هـ توفى محمد بن تومرت على أثر هزيمة جيوشه أمام المرابطين فخلفه عبد المؤمن بن علي، الرياسة ولعل توليه أمر الموحدين يمثل مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المرابطين والموحدين وبداية تحوّل في تاريخ الموحدين. ينتمي عبد المؤمن بن علي إلى قبيلة (كومية) وهي بطن من بطون قبيلة زناتة وقد استطاع أن يضع الأساس المتين لدولة الموحدين، فقد قضى عاماً ونصف العام بعد توليه خلافة محمد بن تومرت، ينظّم شئون الموحدين ويحشدهم ويستنفرهم لجهاد المرابطين، وقد عبأ سنة 526 هـ جيوشاً جراراً وسار به لمنازلة المرابطين فأخضع أغلب أقاليم دولة المرابطين لسلطته، وذلك خلال السنوات من 526 – 540 هـ حيث جرت معارك محلية بينهما، كان النصر فيها دائماً للموحدين، وفي نهاية عام 540 هـ لم يكن ثمة شك في غنهيار دولة المرابطين وسلطانهم في المغربين الأوسط والشمالي حيث بسط الموحدون نفوذهم على سائر القواعد الجنوبية للمرابطين، فيما عدا مراكش وبعض الثغور الشمالية ولكن بدا واضحاً إن دولة المرابطين راحت تتلقى الضربات المتتالية فتضعفها وتبدد قواها خلال تلك المعارك، وفي الوقت الذي بدأ الموحدون يقتربون من مدينة فاس للاستيلاء عليها، شعرا المرابطون بحراجة الموقف، وبعد استكمال الموحدين الانتشار في مدينة فاس سنة 540 هـ استعدوا للدخول إلى مراكش والظاهر أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا بإخضاع قبيلة مكنتسة التي تحصنت في مدينة مكناسة التي أبقى الموحدون الحصار مضروباً حولها، ثم اتجهوا إلى مناطق آزمور وهي ربوع قبيلة صناهجة فاستولوا عليها ثم انضمت قبيلة دكالة إليهم واحتلوا جبل إبحليز

---

[1] الحلل الموشيه ص 80، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 114، ابن الأثير الكامل ج 10 ص 205

الذي يشرف على مراكش وبذلك احكموا الحصار حولها وعند أول لقاء بين الطرفين هُزم جيش المرابطين وتمكن جند الموحدين من تسلق أسوار مراكش واقتحموها وعندها سقط آخر معقل للمرابطين وزالت دولتهم سنة 541 هـ [1] كما انتهى حكم أسرتهم بمقتل إسحق بن علي بن تاشفين آخر أمرائهم على يد الموحدين[2] .

وبدأ الموحدون عهداً جديداً في مدينة مراكش إذ اتخذوها حاضرة لهم فأدخلوا عليها إصلاحات كثيرة وبنوا فيها مسجدهم الجامع وأتموا جلب المياه إليها وصنعوا أسقيات لها بقرب دار الحجر[3]. وفي 542 قدم على عبد المؤمن بن علي وفد من أهل اشبيلية رفعوا إليه البيعة ، مكتوبة بخطوطهم فأستحسن خليفة الموحدين موقفهم وقبل طاعتهم وكان لذلك أثره في نفوس الموحدين وإيثارهم لأشبيلية باتخاذها حاضرة للأندلس في عهدهم .

والظاهر أن الموحدين بعد ربع قرن تقريباً من احتوائهم للأندلس لم يسعهم السيطرة على مقاليد حكمهم في الإقليمين المغرب والأندلس وبخاصة بعد تحالف الممالك الأسبانية الشمالية ضدهم ونقض القشتاليين للهدنة القائمة بينهم التي عقدت سنة 607 هـ إبان عبور الموحدين إلى الأندلس ومحاصرتهم للمدن والحصون في بلاد قشتاله، لذلك تراخت هممهم في المحافظة على كيان دولتهم، فاندلعت ضدهم ثورات خطيرة هددت نفوذهم وزعزعت سلطتهم الدينية والسياسية وسقطت بأيدي الثوار بلاد تامسنا وبلاد المصامدة وهاجت قبائل حاحة ورجراجة وهزميرة وهكسورة ودكالة، وعلى الرغم من أن الموحدين استطاعوا في مرحلتهم الأخيرة أن يخمدوا هذه الثورات وينقذوا حكمهم من السقوط ولكن معركة " العقاب " بينهم وبين جيوش الممالك الأسبانية الشمالية جاءت لتضع حداً لدولة الموحدين ليس فقط في الأندلس وإنما في المغرب الإسلامي، حيث توجهت كتائب الموحدين

---

[1] ابن عذارى، المصدر السابق ج 4 ص 108، ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص232

[2] البيذق، أخبار المهدي بن تومرت ص 104

[3] أحد ضواحي مراكش أنظر الإدريسي، نزهة المشتاق ص 68 ، 69 .

وعساكرهم إلى طليطلة عاصمة بلاد قشتاله لمواجهة حشود هـؤلاء الصـليبيين هناك سنة 609 هـ / 1212م حيث اشتبكوا بمعركة أسمتها المصادر القشـتالية "لاس نافاس تولوسا " التي أطلق عليها المؤرخون المسلمون " العقاب " فهزمـت جيوش الموحدين على أثرها وتقدمت الجيوش الأسبانية الشمالية المتحالفة إلـى المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب فاستولوا على بانيوس وكاسـترد فـرات وتولوسا وبياسة وبسطة ثم عادت بعض فلول الموحدين إلـى اشـبيلية وعبـرت مضيق جبل طارق إلى مراكش مما وضع نهاية انهيار دولة الموحدين بعـد هـذه المعركة.

وبوفاة آخر أمرائهم محمد الناصر انتهى دورهم في بلاد الأنـدلس بعـد سـقوط أشبيلية بأيدي الأسبان غير أن دولتهم استمرت في المغرب حتى سنة 668 هـ وهي السنة التي قتل فيها آخر حاكم موحدي نُصب من قبل المرينيين، أمام أسوار مراكش حيث استولى الخراب والدمار على معظم ديارهم ودخل ورثتهم بنو مرين إلى مراكش وبدأت مرحلة جديدة بولادة الدولة المرينية فى بلاد المغرب الإسلامى.

علاقات الموحدين بالخلافة العباسية:

يرى الموحدون أحقيتهم في لقب الخلافة الإسلامية لأنهم على حد زعمهـم أكثـر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً، ولما استولى هؤلاء على بلاد الأنـدلس وامتـد نفوذهم من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وحاولوا الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي، ظهروا وكأنهم يتحدون الخلافة العباسـية، وقد زاد ذلك التحدي وضوحاً عندما أقرَّ محمد ن تومرت عبد المؤمن بن علي قائداً على جيش الموحدين وقال لأتباعه: " أنتم المؤمنون وهذا أميركم"[1] وبهذا لم يجد أتباع محمد بن تومرت حرجاً في آن يلقبوا عبد المؤمن بن علـي بلقـب " أميـر المؤمنين"[2] وهذا اللقب هو من ألقاب الخلافة العباسية وحدها. ولا شـك فـي أن

---

[1] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 188

[2] اعتبار الموحدين هم خلفاء المسلمين في الأرض واكتسابهم النفوذ الروحي والمعنـوي فـي العـالم الاسلامي بدلاً من العباسيين

اتخاذ عبد المؤمن بن علي لقب خليفة وتسميته بأمير المؤمنين وإعلان رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال في مصر، يقدم صورة عن تردي العلاقات بين العباسيين والموحدين.

ويذكر أن تغرى بردى، أن الخطبة للعباسيين ظلّت مستمرة في المغرب حتى سنة 524 هـ / 1129 م وهي السنة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين فقطع الخطبة للخليفة العباسي المعتضد بالله وتلقب بلقب أمير المؤمنين[1] وما مدام المرابطون في حينها قد حرصوا على توطيد علاقاتهم بالخلافة العباسية بصور شتى ومنها عدم التلقب بألقابهم وضرب السكة بأسمائهم، فإن الموحدين سلكوا طريقاً مغايراً لنهج المرابطين في علاقاتهم بالخلافة فلم يعترفوا بالتقليد والأعلام السود والشارات التي كان العباسيون يرسلوها للمرابطين سابقاً وقطعوا كل صلة كانت تربطهم بالخلافة العباسية روحياً وسياسياً حتى سقوط دولتهم ولعل من المفيد أن نذكر، أنه على الرغم من سعي صلاح الدين الأيوبي خليفة الفاطميين في مصر لتوطيد العلاقات مع الموحدين بنية الحصول على قطع من الأسطول البحري الموحدي للاستعانة بها في دفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين، فإنه أدرك تردّي العلاقات التي كانت تربط الموحدين بالخلفاء العباسيين وحيث كان هو مرتبط بهم روحياً ومصيرياً، عندئذ خاطب أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بلقب " أمير المسلمين " ولم يلقبه بأمير المؤمنين احتراماً للعباسيين لذلك لم يستجب خليفة الموحدين لصلاح الدين الأيوبي ولم يحقق له غرضاً إذ لم يعجبه أن يخاطبه هذا الأخير بهذا اللقب[2].

---

[1] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج5 ص 50 – 51

[2] السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 2 ص 63

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

1- إمارة بني مَرين

2- سقوط إمارة بني مَرين.

3- الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

أ – إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (بلاد الجزائر).

ب – إمارة بني حفص في المغرب الأدنى (بلاد ليبيا وتونس).

ج – دور المغرب الإسلامي في احتضان العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة.

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرين والإمارات المحليّة في المغرب الإسلامي

(1)إمارة بني مَرين:

(592- 957 هـ/ 1195- 1550 م)

كان بنو مرين قادة جيوش الموحدين وولاتهم وعمالهم في البلاد التي تخضع لسيادتهم ابتدءا من المغرب الأدنى حتى الحافات النهائية الغربية للمغرب الأقصى وبعد أكثر من مائة عام من حكم الموحدين، بدأ بنو مرين يتحينون الفرصة للانقضاض على حكم الخلفاء الضعفاء الأواخر الذين فقدوا السيطرة على مقدّرات دولتهم المترامية الأطراف حيث ظهرت بوادر الانهيار على مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية وقد أعلن المرينيين استقلالهم على منطقة طنجة وسبتة واعترف أهلها بأبي زكريا الحفصي بالسيادة عليهم كما أقرت بعض مدن الأندلس التي كانت تحت هيمنتهم بالحكم المريني، وبذلك أصبحت هناك قوتان تتقاسمان إرث الموحدين وهم المرينيون وبني عبد الواد وبخاصة في منطقة المغرب الأقصى، وبمرور الزمن تركّز بنو مرين في حدود المغرب الأقصى والأوسط واستقلالها بحكم هاتين الأسرتين قد تم بسهولة لأنهما كانا يحكمان هذه البلدان سابقاً باسم الموحدين.

ويمكن القول أن قيام دولة بني مرين الحقيقي بدأ منذ أن دخلوا مدينة مراكش حيث تمكن أحد أمرائهم وهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من اجتياحها سنة 668 هـ وقد اتخذوها فيما بعد مركزاً لهم بعد أن كانت عاصمة الموحدين وحاضرتهم، وفي عهد هذا الأمير أطلق لأول مرة على دولتهم اسم " الدولة المرينية " نسبة إلى مرين الذي ينتسب إلى فرع من فروع قبيلة زناتة، كما أطلق عليها " الدولة الوطاسية " نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين، وهو الفرع نفسه الذي حكم هذه الدولة.

وليس من شك في أن بروز اسم المرينيين غنما كان بسبب مساهمتهم الفعّالة في "معركة الأرك " التي وقعت سنة 591 هـ/ 1195 م بين الموحّدين والأندلسيين

من جهة وبين الأسبان القشتاليين من جهة ثانية[1] حيث أبلوا فيها بلاءاً حسناً ولكن أصيب خلالها أميرهم محمد بن أبي بكر ومات متأثراً بجراحه فخلفه على رئاسة الدولة ابنه عبد الحق وكان عهد الأمير عبد الحق يمثل عهد القوة والتوسع، فقد دخل المرينيون جميع بلاد المغرب الأقصى وانتشروا في منطقة الريف سنة 610 هـ مستغلين ضعف خلفاء الموحدين واضطراب الأوضاع السياسية وتراجع الموحدين عن الثغور المتاخمة للفرنج والأسبان، وعدم الدفاع عنها، وعلى الرغم من وقوف الخليفة الموحدي يوسف المنتصر بوجه المرينيين وحشده لجيش يناهز العشرين ألف فارس، لكن بني مرين استطاعوا أن يهزموا جيش الموحدين في وادي نكور سنة 613 هـ / 1216م ثم زحفوا نحو مدينة رباط تازي وانتزعوها من الموحدين.

وفي غمرة الانتصارات التي كان يحرزها المرينيون على مواقع الموحدين وجيوشهم حدث انشقاق بين صفوف قوات بني مرين فخرج جيش منهم بقيادة عسكر بن محمد والتحق في صفوف الموحدين وتحالف معهم بعض عرب المشرق في رباح[2]، وفي معركة وادي سبو على مقربة من مدينة شافر كاست سنة 614 هـ تفَرق بنو مرين وقتل أكثر جيشهم، غير أن بني مرين أقسموا على الثأر وما لبثوا إن التقوا في معارك عدة مع أعدائهم واستردوا نفوذهم وسلطتهم وخاصة في عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق الذي راح يستغل ضعف الموحدين وإنخذال جيوشهم في أكثر مناطق المغرب الإسلامي وأخذ يدعوا القبائل إلى الدخول في طاعته فأعلنت أكثر القبائل[3] استسلامها والانحياز إلى جانبه.

---

[1] وكان الجيش القشتالي بقيادة الملك الفونس الثامن، حيث أقام في محلة الأراك حصنا عرف بحصن الأرك وقد جرت المعركة غرب المدينة الملكية وإلى شرق السهل الذي جرت فيه معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479 هـ (ابن عذارى البيان ج 3 ص 191، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 200).

[2] ويسمون (عرب رباح) وهم أقوى القبائل العربية في المغرب الإسلامي

[3] ومن القبائل التي انضمت الى المرينيين، هوارة وزركارة وتسول ومكناسة وبطوية وقشتالة وسدراتة وبهلولة ومديونة وفرضوا عليهم الخراج والضرائب ووجّه إليهم الجباة والعمّال، كما ألزم أهل فاس وتازي وقصر كتامة بتأدية ضريبة سنوية مقابل حمايتها فاستجابوا إتقاءا من غاراته التي كان يشنها عليهم (ابن خلدون، العبر ج 3 ص 195).

وعلى الرغم من إغتيال أبي سعيد بن عثمان بن عبد الحق سنة 618 هـ فان المرينيين واصلوا تصديهم للموحدين ومقاتلتهم وتحقيق هدفهم في بسط نفوذهم وسيطرتهم على جميع المغرب الإسلامي، ففي عهد معرف بن عبد الحق، اشتبك المرينيون مع جيش الموحدين الذي كان يقوده " أجر محمد بن واندين " وانتصروا عليهم بالقرب من مدينة مكناسة غير أن الموحدين يذلوا جهودهم ونشاطهم في محاربة بني مرين فأعدوا لذلك جيشاً ضخماً مؤلفاً من فرسان عرب المشرق والمصامدة وبعض العاصر الرومية والتقى معهم على مقربة من منطقة " أحوازفاس " حيث أوقعوا الهزيمة في صفوف المرينيين وتفرق جيشهم إلى فلول منهزمة في منطقة جبال " غياثة " [1].

ويمكن القول، أن الدولة المرينية لم تشرف على نهايتها حتى بسطت سيطرتها من برقة وطرابلس شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى غرباً حيث بدأت نذر الضعف والانهيار تدب في كيانها المتسع الأرجاء. ولكن قبل أفول نجمها يمكن الاعتراف المرينيين بالفضل في وقوفهم مع والأندلسيين والغرناطيين ضد تعديات الأسبان القشتاليين واعتدائتهم المستمرة على المدن الأندلسية، لذلك وطدّوا أنفسهم على مساعدة إخوانهم فعبروا أربع مرات لنجدتهم مع جيوشهم ومعداتهم وأحرزوا النصر على الجيوش المتحالفة من الأسبان القشتاليين:

أ – في سنة 591 هـ /1195 العبور الأول في معركة الأرك [2].

ب- في سنة677 هـ/1278م العبور الثاني محاصرة اشبيلية في أراضي قشتالة[3]

ج- في سنة 681 هـ/1282م العبور الثالث[4].

د-في سنة 684هـ / 1285 م العبور الرابع[5].

---

[1] المصدر نفسه ج4 ص 455 – 457.

[2] ابن عذارى، المصدر السابق ص 191

[3] ابن ابي زرع، الذخيرة السنية ص 160

[4] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 61

[5] ابن خلدون، المصدر السابق ص 393، ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج 1 ص 563.

جرى اشتباك جيوش المرينيين مع المتحالفين في البر والبحر مما أرغم القشتاليين على طلب الصلح وعقد هدنة بين الطرفين فوضع المرينيون شروطهم ومنها عدم الاعتداء على الأندلسيين ومسالمة العرب المسلمين من الغرناطيين [1].

واستمرت نجدات بني مرين لإخوانهم والأندلسيين ففي سنة 690 هـ/ 1291م وجّه الأمير أبو يعقوب المريني أسطولاً لمقاتلة القشتاليين انتصاراً لعرب الأندلس، فتوغل الجيش المغربي إلى شريش ثم اجتاز أحوازا اشبيلية ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء فكان لهذا العمل العسكري أثره لدي القشتاليين، فقد ترك في نفوسهم التوجس والخوف من تكرار مثل هذا الهجوم في المستقبل فخفّضوا من ضغوطهم على مملكة غرناطة بل وسعوا إلى محالفة أمراء بني الأحمر فيها.

وهكذا وضع بنو مرين أساساً متيناً للتعاون ونصرة العرب المسلمين الأندلسيين وإبعاد الأخطار المحتملة على مملكة غرناطة طوال مدة حكمهم للمغرب وقدموا صورة واضحة للتضامن وتقديم العون من أجل المحافظة على السيادة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس حتى نهايات القرن التاسع الهجري بسقوط مملكة غرناطة.

سقوط إمارة بني مَرين:

يلاحظ بعد وفاة الأمير أبي الحسن على بن عثمان المريني، سريان الضعف والانحلال في أجهزة الدولة المرينية ومرافقتها ومواستها وذلك نتيجة لتولي بعض الأمراء الذين وصفتهم المصادر بالضعف وعدم الاقتدار وضيق النظرة ومسايرة الشهوات وكثرة النزاعات[2] ، فلم تلبث أن فقدت دولتهم المغرب الأدنى ثم المغرب الأوسط وعادت إلى إطارها وحدودها القديمة ، وقد توج استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة 818 هـ/ 1415م سقوط المرينيين بل وكان نذيراً ليس فقط لإنهيار دولة بني مرين بل وقوع جميع بلاد المغرب الإسلامي تحت السيطرة

---

[1] توفى أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685 هـ وكان يقود جيش العبور قبل ان يعود الى المغرب (انظر ابن عذارى، المصدر نفسه ص 196).

[2] ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 119.

البرتغالية[1] حيث كان هؤلاء يفتشون عن مناطق نفوذهم في شمال أفريقية بصورة خاصة وهكذا اختتمت الدولة المرينية عهدها بالإقتصار على مدينة فاس[2] حتى سنة 956 هـ/154م حيث سقطت دولتهم بسقوط هذه المدينة على أيدي قوة من" الأشراف السعديين " .

---

[1] استولى البرتغاليون وحلفاؤهم من الفرنج على جزء كبير من ساحل المغرب فاحتلوا " آصيلا " سنة 876 هـ / 1471 م وصافي وآزمور وطنجة سنة 879 هـ / 1476 م

[2] حيث فقدت أخيرا مراكش وتافيللت ودرعة والسوس وبلاد الريف.

(2)

الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(أ) إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط "بلاد الجزائر":

(633 – 914 هـ / 1235 – 1508 م)

استغل بنو عبد الواد، وكانوا في الأصل من أمراء القبائل المرحّل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، ضعف الموحدين وعدم سيطرتهم على الحفاظ لكيان دولتهم الشاسعة الأرجاء، للسيطرة على بعض المناطق والحصون القريبة من تلمسان التي كانوا يحكموها باسم الموحدين، بل ازدادوا تمادياً بإعلان استقلالهم في تلمسان واتخذاها عاصمة لهم سنة 624 هـ / 1227 م وذلك بعد أن أطيح تماماً دولة الموحدين والظاهر أن الظروف التي أحاطت ببني عبد الواد مكنتهم من تكوين إمارتهم التي شاء لها أن تلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، استمرت ما يقرب من الثلاثة قرون، وإن الاستقرار الذي ساد بلاد المغرب، كان أحد العوامل التي ساعدت بني عبد الواد من تكوين سلطتهم ونفوذهم وفرض أنفسهم فرضاً على سكان سواحل المغرب الأوسط، ثم ما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها، وقد لعب يغمراس بن زيّان وكان أحد ولاة الموحدين في تلمسان، دوراً كبيراً في تأسيس إمارة بني عبد الواد وإقامتها، فقد سمح للقبائل المنتمية إليهم وأقاربهم وحلفائهم أن يتركوا الصحراء ويستقروا في سهول وهران، لكن يضعوا أمكاناتهم تحت تصرّف عامل الموحدين، وكان بنو زيّان قد ساهما مساهمة فعّالة في الدفاع عن منطقة وهران فقتلوا نظير ذلك بعض الإمتيازات، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى استقلاله ومجابهة الإخطار المحيقة به من الشرق ومن الغرب.

ومن الأخطار التي كانت تهدد غمارة بني عبد الواد، مجموعة القبائل العربية المشرقية المنتشرة في وديان الساحل الشمالي للمغرب الأوسط، كما إن بني حفص في تونس هم الآخرون كانوا يشكلون تهديداً دائماً لبني عبد الواد، فقد كان هؤلاء

يحاولون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ويزعمون بأنهم"ورثة الموحدين" ومن حقهم أن ينشطوا في هذا المجال. ونتيجة لقوة بني حفص وتأثيراتهم في القبائل المنتشرة في تلك الأصقاع، اضطر يغمراسن بن زيّان، الاعتراف بسيادة الحفصيين على مناطق واسعة في المغرب الأوسط، فيما كان المرينيون يمينون الفرص السانحة للتدخل في المغرب الأوسط والسعي للاستيلاء عليه رغم أنهم فشلوا في اقتحام أسوار تلمسان المنيعة، وتكررت محاولات المرينيين ضد تلمسان في سنة 737 هـ / 1336 م حيث سار أبو الحسن علي بن عثمان إليها وشدّد عليها الحصار وأقام معسكراً ثابتاً أمامها ليكون قاعدة لعملياته العسكرية، ولم تلبث محاولات المرينيين إن أسقطت تلمسان بالفعل سنة 738 هـ، فوسعوا نطاق القاعدة العسكرية التي أقاموها أمام المدينة حتى أصبحت تلمسان مدينة كبيرة أطلق عليها اسم " المنصورة " ثم انطلقوا منها ليقضوا على سلطة بني عبد الواد بقتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وعلى الرغم من بقاء تلمسان في حوزة بني مرين أكثر من عشر سنوات من تاريخ سقوطها بأيديهم وبقائها مركزاً لحكومتهم، فإنها خرجت من نفوذهم، حيث استعادها بني عبد الواد سنة 750 هـ / 1349 م ولكن مع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، إذ سقطت بيد المرينيين سنة 753 هـ / 1352 م ومع ذلك لم يلبث أحد أمراء بني عبد الواد وهو أبو مسلم إبراهيم بن أبي الحسن أن دخلها واستولى بالأمان عليها سنة 761 هـ / 1359 م وعهد بحكمها إلى أحد أحفاده.

ونقرأ خلال هذه الحقبة عن الازدهار الذي أصابته مدينة تلمسان وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي ومياهها الجارية وأحاطتها البساتين والجنان، فاستعادت بذلك مجدها القديم وأصبحت مركزاً تجاريا مهماً يقصده تجار العالم الإسلامي ومركزاً للقوافل التي تمر بها من تافيللت والسودان، كما أبنى فيها بنو عبد الواد المساجد والقصور والعمائر والمنشآت التي اتخذت بمثابة المدارس.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري، فقدت تلمسان استقلالها على أثر اجتياحها من قبل جيوش بني حفص، حيث تغلّب الأمير أبو فارس عبد العزيز بن أحمد

الحفصي على أميرها الواثق بالله. ومنذ سنة 870 هـ / 1465 م تعرّضت تلمسان إلى حملات الحفصيين العسكرية حتى نجحوا في هدم أسوارها وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّت سلطة بني عبد الواد متماسكة، إلى أن ظهر الأسبان على المسرح السياسي، ففي سنة 914 هـ/1508 م سقطت وهران بيد الغزاة الأسبان ومن ثم سقطت الجزائر، وهكذا أسلمت بلاد بني عبد الواد إلى خير الدين بربروسا ومن ثم أحد قراصنة الأتراك لكيلا تقع لقمة سائغة بيد الأسبان، وقد كان ذلك سبباً في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب الإسلامي.

(ب)إمارة بني حفص[1] في المغرب الأدنى " تونس "

(625 – 950هـ / 1227 – 1446م)

استقل بنو حفص عن كيان دولة الموحدين في عهد أبي زكريا يحيى الحفصي الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لإمارة الحفصيين في تونس حيث استقل بإمارة أفريقية سنة 625 هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله بن أبي محمد أبي حفص[2] وعلى الرغم من الأحداث الخطيرة التي رافقت قيام إمارتهم، فإنهم حكموا حقبة طويلة بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف، أقاموا خلالها علاقات وثيقة مع أهل شرق الأندلس واشبيلية والمرية، وقد أرسلوا إلى أبي زكريا يستصرخونه ويستنجدون به ضد الأسبان القشتاليين، وكان محمد استنجد به الفيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خلف بن قاسم الأنصاري والعلاّمة الشاعر والمؤرخ أبو عبد الله بن الآبار[3] حيث وصل هذا الأخير إلى تونس سنة 635 هـ[4] ، فبادر الأمير أبو زكريا الحفصي إلى تجهيز أسطول شحنه بالمؤن والسلاح مكون من ثماني

---

[1] ينتسب الحفصيون الى الشيخ ابي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتي من قبيلة هنتاتة أكبر قبائل مصمودة وكان لأبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين.

[2] يبدو أن سبب استقلال ابي زكريا بتونس يرجع الى ما قام الموحدون من قتل بعض أنصارهم ومريديهم في مدينة مراكش وبخاصة من هنتاتة وتينملل (د. السيد عبد العزيز ساع، المغرب الكبير ج2 ص 875).

[3] ابن الأبار الحلة السيراء ج 2 ص 125.

[4] المقرى، ازدهار الرياض ج 2 ص 590.

عشرة سفينة كبيرة وصغيرة اتجهت إلى بلنسيا بصحبة ابن الآبار والوفد الأندلسي [1]، وعلى الرغم من عدم وصول هذه كنجدة لأهل المدينة ولكنها ظهرت مدى استجابته الحفصيين لأهل الأندلس ووقوفهم إلى جانبهم في محنتهم وجاء ذلك في كتاب "الجلّلة السيراء" لابن الآبار حيث وصفها كشاهد عيان[2] .

ونتيجة لتوطيد العلاقات بين الحفصيين والأندلسيين فقد تأثرت بلاد المغرب الأدنى " تونس " بعوامل الحضارة الأندلسية، حيث فتح أبو زكريا، أبواب بلاده ومدنه للمهاجرين من أهل الأندلس وخاصة من العلماء والشعراء والفقهاء، وقد بلغ تأثير الأندلس ذروته في الإمارة الحفصية في عهد أبى عبد الله المستنصر بالله خليفة أبى زكريا يحيى الهنتاتي، حيث وصف بأنه كان من أعظم بناة هذه الأسرة وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس من العلماء. وقد ابتنى القصور وأقام البساتين على نسق قصور الأندلس وبساتينها، كما توطدت العلاقات التجارية في عهده بين تونس وبرشلونة ومرسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وصقلية وأنشأت الفنادق والمنشآت والمباني بتونس، وبعد وفاة أبى زكريا يحيى الهنتاتي تعاقب على الحكم عدد من الأمراء لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذ أسرة الحفصيين، مما أدى إلى سريان الضعف والانقسام بين صفوفهم فخرجت بجاية عن طاعتهم واستغل أعداؤهم من المرينيين وبني عبد الواد ذلك فاستطاع الأمير أبو عنان المريني تجريدهم من تونس. ولكن في عهد أبى العباس استعادت إمارة الحفصيين بعض نفوذها، ثم قام ابنه أبو فارس بالإغارة بحراً على مالطة وجربه واستولى على تلمسان، لذلك عرفت دولته جانباً من الازدهار والقوة وتمكن كذلك أن يضم الدويلات المستقلة التي نشأت بعد الفوضى والاضطراب التي حلّت بالبلاد بعد وفاة أبى أبي زكريا يحيى ففي سنة 801 هـ/1400 م استولى على إمارة توزر وقنصه وفي سنة 805 هـ/ 1402 م دخلت جيوشه إلى إمارة بسكرة ونجح في سنة 813 هـ / 1410 م بالاستيلاء على مدينة الجزائر. وفي عهده قدمت السفارات من سائر

---

[1] م . ن. ص 205 .

[2] كتاب الحلة السيراء ج 2 ص 27، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ج 2 ص 273

أنحاء العالم إلى تونس، تهادنه وتخطب مودته ومنها سفارة أمير غرناطة وسفارة فاس وسفارة مصر. وفي سنة 838 هـ/ 1434 م توفى أبو فارس بن أبي العباس. فتولى عدد من الأمراء الذين أضعفوا كيان الإمارة حتى سنة 850 هـ / 1446 م حيث استعفى أبو عمرو جميع الاضطرابات وقطع الثوار وعمل على إزالة ما يحول دون ازدهار الإمارة الحفصية، فعقد المعاهدات التجارية مع فرنسا ومصر والأندلس. غير أن هذا الازدهار لم يدم طويلاً فبعد وفاة أبى عمرو وعثمان بن أبي العباس، تمزقت وحدة الإمارة تحت ضربات الغزو الأسباني انتقاماً من الأتراك الذين كانوا قد اتخذوا السواحل التونسية أوكاراً لهم وهكذا كتبت نهاية الإمارة الحفصية بانتشار قوات الأتراك العثمانيين لاستكمال سيطرتهم على جميع بلاد المغرب الإسلامي.

دور المغرب الإسلامي في استقبال واحتضان العرب المسلمين المهاجرين بعد سقوط غرناطة 897هـ / 1491 م) [1]

أتضح أن استيلاء بني مرين على مراكش سنة 668 هـ / 1269 م وإقامة إمارتهم فيها، جعل نشاطهم يتركز في مجالين أولهما بلاد المغرب الأدنى والأوسط ومحاولتهم السيطرة والاحتواء السياسي، وثانيهم نحو بلاد الأندلس ومملكة غرناطة بصورة خاصة وسعيهم على إنجاد أهل الأندلس عامة ومساعدة بني نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين والأسبان المتربصين بهم، وقد درج بنو مرين على هذه السياسة بعد أن تركز وجودهم في المغرب واستحواذهم على مخلفات دولة الموحدين، ففي عهد الأمير يعقوب بن عبد الحق سنة 668 هـ، خرج بنو مرين بجيش من فاس متجهاً إلى الأندلس فاكتسحوا الفحوص والزروع والبسائط والوديان لتهديد القشتاليين وإشعارهم بقوة حلفائهم من بني نصر[2] بل وتركوا فرقاً دائمة في الأندلس للمرابطة على الثغور الأندلسية متفرعة لردَ الأسبان القشتاليين وحلفائهم، والظاهر أن موقف المرينيين هذا كان له أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس وعلى مملكة غرناطة، وفي سنة 673 هـ أرسل هذا الأمير جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل ليقوده الأمير نفسه وعند مدينة استجه، اشتبك مع جيش القشتاليين الذي كان يقوده الدون فوينودي لارا [3] حيث هُزم القشتاليون واندحرت جيوشهم.

---

[1] وهم الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

[2] وهم الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

[3] تطلق عليه المصادر الأندلسية اسم " ذنة أو ذنونة " (ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج1 ص 565، ابن خلدون، العبر ص 370، المقري، نفح الطيب ج1 ص 449)

ولكن بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1491 م، لم يسع الإمارات والدويلات في المغرب الإسلامي أن تحول دون ذلك ولكنها بدأت تستقبل من يضطر على الهجرة وهم أفواج من العرب المسلمين من مختلف المنازع والطبقات منهم العلماء والفقهاء والشعراء وطلبة الفقه والرؤساء والأمراء، وأول من عبر إلى المغرب أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وذلك بعد سقوط مملكته حيث ارتحل مع عياله وأمر بالجواز إلى العدوة الأندلسية وأُعدت له المراكب حيث ركب معه كثير من المسلمين ونزلوا في مليلة من ريف المغرب ثم ارتحلوا إلى مدينة فاس[1] .

ومن العلماء الذين ارتحلوا من الأندلس القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق الذي استقر في تلمسان والفقيه الأديب أبو عبدالله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي والفقيه أبو العباس البقنّي[2] ، ثم استمرت أفواج العابرين إلى المغرب تتوالى وخصوصاً بعد أن نقض ملوك قشتالة عهودهم ومواثيقهم في الصلح التي أبرمت مع سكان غرناطة واستطالوا عليهم وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وأُجبروا على الخروج إلى الأرباض والقرى وأخذت منهم أملاكهم ومعاقلهم وانتزعت أسلحتهم [3]

وفي سنة 981 هـ/1573 م أزمع أهل تلمسان والجزائر على تدبير حملة بحرية لمهاجمة (المرسى الكبير) في مياه بلنسية يعاونهم العرب هناك، لذلك بادرت السلطات القشتالية إلى نزع سلاح العرب في بلنسية، وعلى الرغم من فشل هذه الحملة التي استهدفت غنقاذ إخوانهم من الاضطهاد والتعسف ولكنها كانت بداية لمحاولات أخرى على هذا الطريق، وقد وضعت الأساس لغارات مستمرة على الثغور والشواطئ الأسبانية لغرض الانتقام للأندلس الشهيدة [4] .

---

[1] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 67

[2] م . ن. ص 71 – 72

[3] المقري، المصدر نفسه ص 69 – 70

[4] محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ص 367

واستغرقت هذه الغارات طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ويشير المقري وهو معاصر لهذه الأحداث إلى أن هذه الغارات قد انطلقت من المغرب منتظمة في جيش الأمير ومستهدفة جهاد العدو ومن الأسبان فقال: " أنهم انتظموا في جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن " [1].

---

[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 2 ص 617